الحياة الطيّبة
السنة 20
العدد 35
خريف 2016 م
ملف العدد

مدخل إلى الرؤيّة الاستشرافيّة في القرآن الكريم

د. الشيخ محمد علي ميرزائي[1]

خلاصة المقالة:

تهدف هذه الدّراسة إلى إثبات الرؤيّة المستقبليّة في القرآن الكريم بوصفها منحىً أساسًا في عمق الفلسفة المفهوميّة ومنظومة الدلالات في جميع أبواب القرآن الكريم؛ لأجل تأكيد الأهمّيّة القصوى للنظرة الاستشرافيّة في تحسين حال الأمّة وترشيدها للأنظمة المعرفيّة والاجتماعيّة للمسلمين ولغيرهم -أيضًا-، لأنّه كتاب هدايّة للبشريّة جمعاء ولم ينزل على المسلمين وحدهم؛ بل حينما نزل الكتاب الكريم لم يكن هناك مجتمع إسلامي بالمعنى الاصطلاحي للكلمة.

ومن المحاور الأساس والفرضيّات الهامّة التي تريد الدراسة تأكيدها:العلاقة بين الرؤية المستقبليّة القرآنيّة والمنهجيّة السببيّة العلميّة المنطقيّة الحاكمة على القضايا المطروحة في الآيات القرآنيّة حول الإنسان والمجتمع واتّصافها بالقواعد والسنن المحكمة؛ ما يؤذِن بإمكانيّة تحقّق عمليّة التوقّع للمستقبل وأحداثه؛ بل يساعد على صناعة المستقبل[2]، لا معرفته فحسب.

(1) باحث في الفكر الإسلاميّ، عضو الهيئة العلميّة في جامعة المصطفى ﷺ العالميّة في قم المقدّسة، ودكتوراه المذاهب الكلاميّة من جامعة الأديان، من إيران.

(2) إنَّ الرؤية القرآنيّة في جميع المحاور والاتّجاهات هي تأسيسيّة فعّالة تستعرض أدوات صناعة البديل وليس الانفعال تجاه الحلول الجاهزة وتوجيه النقد والرفض والتشكيك إليها. إنَّ المستقبليّة القرآنيّة تدعو المسلمين إلى أنْ يأخذوا المبادرة بأيديهم في حسم مستقبلهم وصناعته؛ لأنَّ القوى العالميّة بما تملك من الوسائل والسياسات والعقل الاستراتيجيّ تعمل على فرض مستقبلهم علينا في القادم. ونحن في ضوء القرآن الكريم نسعى لتقديم بديلنا الإسلاميّ في صياغة المستقبل القريب والبعيد.

ومن ناحية أخرى، فإنّ المستقبليّة القرآنيّة هي سمة عامّة للفكر الإسلاميّ الإلهيّ تساهم في مجمل العمليّات التربويّة وكذلك الصياغة الاجتماعيّة وبناء منظومات المعرفة والمعتقد والقيم. بهذا المفهوم لا ننظر إلى المستقبليّة القرآنيّة باعتبارها عنصرًا في التأكيد على معرفة المستقبل أو العمل له أو الخفض من الاهتمام بالراهن في ضوئها، وإنّما الهدف الأساس هو أنْ نثبت أنّ القرآن الكريم يؤسّس لرؤيّة مستقبليّة تتحوّل في ما بعد إلى سمة التفكير الإنسانيّ عمومًا، ويصار إلى أخذها بالاعتبار من قِبَل الإنسان الفرد والأمّة في عمليّة التصميم والتخطيط والإدارة والقيادة ومواجهة الأخطار ومواكبة الأحداث.

والمعطى الهامّ الثالث هو السعي إلى إثبات أنّ الإنسان القرآنيّ بفطرته مستقبليّ الاتّجاه وذو نزوع استشرافيّ في قرارة فطرته، حتّى لو أخطأ في التطبيق والبرمجة، وكذلك فإنّ جميع الأوصاف الحميدة والصفات الحسنة إيمانًا وخُلقًا وفقهًا تتلاحم وتتشابك في القرآن الكريم في ظلّ منطق مُنسجمٍ في رسم المستقبل وتوعية المسلم في حركته الراهنة.

مصطلحات مِفتاحيّة:

الدراسات المستقبليّة، الرؤيّة الاستشرافيّة، القراءة الزّمنيّة، الماضويّة، السلفيّة، السببيّة العلميّة المنطقيّة، السنن، المستقبليّة القرآنيّة، منهجيّة الاستشراف في القرآن.

مقدّمة:

إنّ الاستشراف والاستقبال مفهوم مرتبط بمدى الرؤية وأفق النظر؛ ولذلك فهو مفهوم غاية في الأهمّيّة والخطورة. مَنْ يملك الرؤية الأوسع، يبقى هو وبرامجه بمعزل عن التهديدات المباغتة، وإنْ تعرّض للصدام، فهو يخوضه على أتمّ جهوزيته وكامل أهبته. إنّ تهديدات كبيرة وتحدّيات ضخمة قد تواجه الإنسانَ البصيرَ وذا الرؤية البعيدة في الحياة، وهي المقتضى الطبيعيّ في هذه الدنيا، ولكنّ توافر الرؤية، وبُعد النّظر، والتوجّه

الاستشرافيّ صفات هامّة تَحميه من أنْ ينفعل أويسقط أمام المباغتة والهجوم غير المحسوب لأجل أنّه سبق وأعدّ لهذه المواجهات ما استطاعَ، حسب التعبير القرآنيّ.

وكذلك فإنّ أصحاب الرؤية الاستشرافيّة المنعمين بوجهة المَعاد وتَرقّبِ الحساب، والمعتقدين بفكرة المهدويّة العالميّة الواعين للقادم والمنتظرين له، لا يقعون فريسةَ المؤامرات القادمة من جبهات أخرى سبق أن تجاهلوها كلّيًّا بسبب التهائهم بأشياء أخرى في مناطق واتّجاهات مختلفة تمامًا.

إنّ دراسة أحوال الأمّة تكشف لنا مدى الانهيارات والتداعيات الناجمة عن ضعف الرؤية وضيق آفاق النظر وفقدان الرؤية الاستشرافيّة المستقبليّة، إمّا بسبب التوغّل في الماضي والتعايش المتطرّف معه؛ كما في النزعات السلفيّة النصّيّة الظاهريّة، وإمّابسبب الغرق في الراهن والتجاهل التامّ للقادم، كما في المدارس الحداثويّة والعلمانيّة الدنيويّة. هذه العناصر الخطيرة كلّها تُفقد الأمّةَ القدرةَ على التوقّع والترقّب والتنبّؤ بما سيأتي عليها، كما تحرمهم من الوعي العميق المستقبليّ في التخطيط والتصميم الاستراتيجيّ الراهن، وتُعيق حركة الإعداد والتأهُّب للمواجهة.

هي مشكلة حقيقيّة فعلًا؛ أنْ تكون الأمّة الإسلاميّة هي الأكثر انفعالًا والمُعَرّضة للمُباغتة بين الأمم المعاصرة، والحال أنّها أصلًا أمّة المعاد والنظرة المستقبليّة الرهيبة، قياسًا مع غيرها من الأمم الغارقة في المادّيّة العاجلة والقاصرة في الرؤية والبصيرة حسب التعبير القرآنيّ[1]. وهي

(1) نستطيع الجزم بأنَّ المستقبليّة والرؤية الاستشرافيّة تشكِّل مركزًا دلاليًّا في جميع مفاهيم القرآن الكريم. ولا تقتصر هذه الخاصّيّة على مفهوم الصبر أو البصيرة أو الإبصار أو العصر والمعاد، وحتّى الخلق والأمر والرشد والتوحيد و. . . وإنّما هي الجوهر والكنه في دلالات القرآن الكريم. ومثال على ذلك يمكننا الإشارة إلى كيفيّة دلالة البصيرة على المستقبل ودورها في ترسيخ الرؤية الاستشرافيّة في الشخصيّة المسلمة. حيث نرى أنَّ مفهوم البصيرة يعني فيما يعنيه الإشراف المعرفيّ والعقليّ على جميع الأبعاد في ظاهرة أو شيء أو فكرة أو حدث. وعليه، فإنَّ البصير هو الفاحص الدارس الباحث عن جميع العناصر الجذريّة المبدئيّة؛ كما أنّها تقضي بضرورة الإمعان في النتائج والتبعات التي عادة تقع بعد الأحداث والأعمال أو النتائج المستقبليّة التي تحيط بالإيمان بمعتقد محدَّد. ومن هنا،

الشريعة الإسلاميّة التي جعلت للعقل مركزيّة محوريّة لجميع المستويات الفكريّة والعمليّة، تلك العقلانيّة التي لن تنفصل عن الرؤية المستقبليّة بحال، كما إنّ التوجّه الاستشرافيّ يُشكّلُ المغزى والجوهرَ لحركة العقل في المضمون القرآنيّ.

أولًا: المسار التطويريّ للمصطلح وبيان المفهوم:

نحتاج في تعريف الدراسات المستقبليّة إلى تحليل مفرداتها أولًا، ثمّ

نستطيع القول إنَّ البصيرة هي الرؤية والنظر إلى الأشياء، ولكنْ بشمول وجامعيّة وكمال؛ وهي صفات تقتضيها الحقيقة، وهي على عكس البصر الذي يوصلنا إلى صورة للأشياء وليس تبلّغنا حقائقها.
وهناك علاقة محكمة بين التفقّه والبصيرة، أي أنَّ البصيرة تقترن بالتفقّه، والفقه هو الوعي والفهم العميق الشامل الجامع للأشياء والمفاهيم. ربّما تشير الآية: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا. . . ﴾ (سورة الأعراف، الآية 179) في مغزاها إلى أنَّ الأعين ليست بالضرورة توصلنا إلى الإدراك الكلّيّ الكامل للشيء، ونحن نحتاج إلى بصيرة وفقهًا لنستشرف الحقيقة.
وفي وصيّة للإمام الكاظم عليه السلام، قال: «**تفقّهوا في دين الله؛ فإنّ الفقه مفتاح البصيرة**». (الحرّاني، ابن شعبة: تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليه وآله، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، ط2، قم المقدّسة، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، 1404هـ ق/ 1363هـ ش، ص410)، واعتبر الفقه الذي قلنا إنّه يساوي العقل والوعي الشامل العميق في صميم الأشياء أنّه المفتاح للبصيرة. فلا يفلح الإنسان في اكتساب البصيرة؛ إلا بالتسلّح بالوسائل الشاملة للإدراك والأدوات المنهجيّة الجامعة له. والبصير لا يضيع ولا يضلّ؛ لأنَّه على بيّنة في كلّ شيء وعلى اطّلاع بالماضي والراهن والمستقبل.
ورد في مناجات أمير المؤمنين عليه السلام: «**إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور، فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أواحنا معلَّقة بعزّ قدسك**». (ابن طاووس، علي بن موسى بن جعفر: إقبال الأعمال، تحقيق: جواد القيومي الأصفهاني، ط1، لا م، مكتب الإعلام الإسلاميّ، 1416هـ ق، ج3، ص299). والمذهل هو أنَّ البصيرة لو اكتملت، ولو تنوَّرت أبصار القلوب، فحاز قلب المؤمن على البصيرة، فإنّها صفة تخرق حجب النور، وتصل إلى معدن العظمة، وتقترب من عزّ القدس الإلهيّ. هي أوجّ الرؤية اللامتناهية وأعلى درجات الإنارة والتنوير والإضاءة أمام الإنسان وأمام المجتمع. وإلى هذا العمق الدلاليّ للبصير والبصيرة يشير ما نُقل عن الإمام علي عليه السلام: «**فإنّما البصير من سمع، فتفكّر، ونظر، فأبصر، وانتفع بالعبر، ثمّ سلك جدًّا واضحًا يتجنّب فيه الصرعة في المهاوي**». (الشريف الرضي، محمد بن الحسين بن موسى العلويّ: نهج البلاغة «الجامع لخطب الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ورسائله وحكمه»، شرح: محمد عبده، ط1، قم المقدّسة، دار الذخائر؛ مطبعة النهضة، 1412هـ ق/ 1370هـ ش، ج2، الخطبة 153، ص41-42). والتعمّق في هذه الكلمات يكشف عن محوريّة البصيرة في تكوين الرؤية المستقبليَّة الاستشرافيّة لتجنّب الوقوع في المهالك الاقتصاديّة والسياسيّة والثقافيّة والطبيعيّة والنفسيّة.

تعريفها جملة بعد ذلك: إنّ المستقبل هو ما واجَهَك، فما تستقبله من أيّام هو مستقبلك؛ لأنّك تواجهه[1]، فيُسمَّى كلّ ما يأتي من الزمان بالمستقبل.

وقد عُرّفت هذه الدراسات بتعريفات عدّة تدور حول كونها محاولة للتنبُّؤ بما ستكون عليه حالة المجتمع الإنسانيّ ومصير الإنسان فيه، عن طريق دراسة الماضي ونتاج الحاضر، والظواهر والبدائل الممكنة.

إنّ الدراسات المستقبليّة هي مجموعة من الدراسات والبحوث التي تهدف إلى تحديد اتّجاهات الأحداث، وتحليل مختلف المتغيِّرات التي يمكن أن تؤثِّر في إيجاد هذه الاتّجاهات، أو حركة مسارها[2].

ويمكن اعتبارها اجتهادًا علميًّا منظَّمًا يرمي إلى صَوغ مجموعة من التنبُّؤات المشروطة، والتي تشمل المعالم الرئيسة لأوضاع مجتمع، أو مجموعة من المجتمعات، وعبر فترة مقبِلة تمتدُّ قليلًا إلى أبعد من عشرين عامًا، وتنطلق من بعض الافتراضات حول الماضي والحاضر، ولاستكشاف أثر دخول عناصر مستقبليّة على المجتمع، ونوعيّة التغيُّرات الأساسيّة الواجب حدوثها في مجتمعٍ ما وحجمها، حتى يتشكَّل مستقبله على نحومعيَّن منشود[3].

وقد عرَّفها معجم أكسفورد الموجز على أنّها: الاستشراف الممنهج للمستقبل، وخاصّةً من منطلق الاتّجاهات الحاليّة في المجتمع.

وحول دلالات المنطلق لعلم المستقبل[4] أو الاستشراف ينبغي التأكيد على أنّ المفهوم أو المصطلح الواحد قد يحمل أكثر من معنى. وفيما

(1) ابن فارس، أحمد: معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، لا ط، قم المقدّسة، مكتب الإعلام الإسلاميّ، 1404هـ ق، ج6، ص88-89؛ ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، لا ط، قم المقدّسة، نشر أدب الحوزة، 1405هـ ق/ 1363هـ ش، ج11، ص573.

(2) عامر، طارق: أساليب الدراسات المستقبليّة، لا ط، الأردن، دار اليازوري العلميّة، 2008م، ص29؛ الجبير، هاني بن عبد الله بن محمد: «من معالم المنهجيّة الإسلاميّة للدراسات المستقبليّة»، ط1، لا م، مجلّة البيان، 1429هـ ق، ص41.

(3) سعد الدين وآخرون، إبراهيم: صور المستقبل العربيّ، ط1، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربيّة، 1982م، ص25.

(4) للمزيد من الإيضاحات حول المراحل الأولى لانطلاق علم المستقبل، انظر: زاهر، ضياء الدين: مقدّمة في الدراسات المستقبليّة، تقديم: السيّد ياسين، ط1، مصر، مركز الكتاب للنشر، 2004م، ص50.

يتعلّق بعلم المستقبل[1]، تتباين المفاهيم والمسَمّيات، ويرجع ذلك إلى طبيعة علم المستقبل، الذي ينتمي إلى العلوم الاجتماعيّة، حيث التباين والاختلاف في تحديد المفاهيم والمصطلحات سمة غالبة. «عليه سنشير إلى عدد من المفاهيم ذات الصلة. إنّ مصطلح علم المستقبل، مشتقّ من الكلمة اليونانيّة «Futurms» التي تعني «المستقبل»، والكلمة اليونانيّة «لوغوس» التي تعني «العلم»، كما إنّ كلمة «Future» تعني «مُقبل»، آت. أما «Futurism» التي تعني المستقبليّة فهي حركة في الفنّ. ونشير إلى أنّ بداية الاهتمام بالمستقبل والاستشراف قديمة في التجربة البشريّة، شأنُها شأن العلوم الأخرى، كما هو الحال في علم الاجتماع، حيث الاهتمام بدراسة المجتمع -أو التفكير الاجتماعي- والظواهر الاجتماعيّة، التي نجد أنّها بدأت قبل الميلاد»[2].

إنّ حداثة الموضوع نسبيًّا-وبخاصّة في العالم العربيّ والإسلاميّ، وعلى الخصوص لو أردنا أنْ نُلقي الضوء عليها من الناحية الدينيّة والقرآنيّة بشكل محدّد- قد سَبّبت الشعور بالحاجة إلى دراسات جادّة في التأسيس النظريّ، ومِن ثَمّ البِناء عليها في البُعد الدينيّ والقرآنيّ. والعكس كذلك صحيح؛ أي إنّنا نحتاج إلى بُنى تحتيّة فلسفيّة فكريّة تُشكّل للبحث والدراسة الاستراتيجيّة، أو للباحثين والدارسين في الحقل الاستشرافيّ، خلفيّاتٍ عميقةً من النظرة القرآنيّة التوحيديّة، ومِن ثمّ تتأسّسُ عليها الهيكليّاتُ العامّة التفصيليّة.

وعلى كلّ حال، فإنّ هذه الدراسات هي: «محاولةٌ للمساهمة في نشر ثقافة الدراسات المستقبليّة، والدّور الذي يمكن أنْ تلعبه في التخطيط الإستراتيجيّ المستقبليّ العلميّ، والدعوة إلى المشاركة في هذا الفرع

(1) إنّ مصطلح علم المستقبل ظهر بهذه التسمية لأوّل مرّة عام 1943م، في مجموعة من الأبحاث، نشرها عالم الاجتماع الألمانيّ أوسيب ك. فليتشهتايم (Ossilechtheim)، حول التنبؤ الاجتماعي. (انظر: المهدي، مالك عبد الله محمد: «ماهية مفهوم ودلالات الدراسات المستقبليّة»، مقالة مقدّمة إلى الملتقى العلميّ حول الرؤى المستقبليّة العربيّة والشراكات الدوليّة، الخرطوم، 22-1434/3/24هـ ق/ 3-2013/2/5م، ص4).

(2) م. ن، ص4.

الجديد من العلوم الاجتماعيّة، بالبحث في تحديد ماهيّته، ومناهجه، وكيفيّة الاستفادة منه، خاصّةً بَعد أنْ تَزايدَ الاهتمامُ بالدراسات المستقبليّة الاستشرافيّة في الأوساط العلميّة العالميّة؛ نظرًا إلى أهمّيّتها؛ فالدراسات المستقبليّة باتت من الضروريّات التي لا يمكن الاستغناء عنها؛ الأمر الذي يَفرضُ على الباحثين بالضرورة، المحاولةَ البحثيّة في تحديد ماهيّة علم المستقبل، والدراسات المستقبليّة الاستشرافيّة، وكيفيّة الاستفادة منها، وتوظيف مناهجها؛ والسعي إلى تأصيل ثقافة الدراسات المستقبليّة ونشرها في جميع مؤسّسات التعليم العربيّة والإسلاميّة»[1].

وينبغي الإشارة إلى أنّه على الرغم من أنّ دراسة مستقلّة عن مفهوم المستقبليّة القرآنيّة تقتضي الابتعاد عن السياقات التأريخيّة القريبة في تطوّر مصطلح المستقبليّة، لخصوصيّة النصّ التأسيسيّ الأوّل والمعتمد على الوحي، غير أنّ استعراضَ المسار المعرفيّ والتأريخيّ الحديث لهذا المفهوم، يساعد الذهنيّة الإسلاميّة على فهم المستقبليّة القرآنيّة بشكل أفضل وأدقّ؛ لوجود عامل المقارنة والمقاربة في مثل هذه الدراسة.

لم يكن علم المستقبليّات في الأربعينات من القرن الماضي أكثر من مجرّد تصوّرات مفهوميّة ترتبط بمحاولات ممنهجة للاستشراف والاستقبال، ولكنّ هذا العلمَ -لأسباب كثيرة موضوعيّة وتطوّرات مذهلة في المنهجيّات العلميّة- قد تطوّر إلى أنْ وصل إلى مرتبة خطيرة اليوم، حيث باتت لهذه الطبيعة من الدراسات المستقبليّة تطبيقات كثيرة جدًّا في شتّى المجالات الاجتماعيّة والسياسيّة على مستوى المجتمعات والدول. وقد ترك بصماتِه الكبرى على مَصائر الشعوب والدول بعد تفعيله على جميع هذه المستويات.

ولعلّنا لو اعتبرنا علمَ الدراسات المستقبليّة من العلوم البَينيّة بالمعنى

(1) المهدي، «ماهية مفهوم ودلالات الدراسات المستقبلية، م.س، ص4.

الدقيق للمصطلح، فإنّنا ما أخطأنا بذلك؛ لأنّ مناهج كثيرة من حقول علميّة أخرى يتمّ استعارتها في المستقبليّة، وقواعد وضوابط كثيرة من علوم أخرى يتمّ توظيفها -هنا- في علم المستقبل؛ لأجل أنّ المستقبليّة هذه ليست محاولات اكتشاف لما سيقع؛ وإنّما هي علم يربط كلّ ما يقع بما وقع، وفي سياق ما هو واقع.

وعن المسار التأريخيّ للفكرة المستقبليّة تقول الدكتورة أمنية الجميل: «إنّ التفكير نحو المستقبل يُعدّ نشاطًا مركزيًّا للأفراد منذ البدء في بناء الحضارات المختلفة، فعلى سبيل المثال، قدّم أفلاطون رؤيته نحو ما يجب أنْ يكون عليه المجتمع مستقبلًا مستندًا إلى فكرة العدالة. أمّا الفيلسوف الإنجليزيّ توماس مور فقد صوّر في كتابه «المدينة الفاضلة» الذي نشر في عام 1516م، صوّر المجتمع المستقبليّ الذي تتحقّق فيه المثاليّة بالمجتمع الذي يتبع فيه الأفراد مجتمعاتهم، وتبلورت أفكاره حول ملكيّة الأفراد المشتركة لموارد المجتمع. لقد ذكر خبراء المستقبليّات أطرًا كثيرة لتعريف الدراسات المستقبليّة، وعدّ بعضهم العناصر التالية من سمات الدراسة المستقبليّةأو مكوّناتها:

1 - إنّها دراسات تركّز على استخدام الطرق العلميّة في دراسة الظواهر الخفيّة.

2 - إنّها دراسات أوسع من حدود العلم، فهي تتضمّن الجهود الفلسفيّة والتقنيّة جنبًا إلى جنب مع الجهود العلميّة.

3 - إنّها تتعامل مع نطاق لبدائل النموّ الممكنة، وليس مع إسقاط مفردة محدّدة لمستقبل.

4 - إنّها تلك الدراسات التي تتناول المستقبل في آماد زمنيّة تتراوح بين خمس وخمسين عامًا»[1].

(1) زاهر، مقدّمة في الدراسات المستقبليّة، م. س، ص52.

ثانيًا: المستقبليّة القرآنيّةوتعديل الاتّجاهات السائدة:

الرؤية السلفيّة الماضويّة المفرطة، والرؤية الوضعيّة الراهنيّة العاجلة، والرؤية المستقبليّة الجبريّة، هي ثلاثة اتّجاهات هامّة تحكم المسلمين وتسود أحوال الأمّة بالمجمل.

1. الاتّجاه الأوّل: السلفيّة الماضويّة المفرطة:

لا تقيم السلفيّة للعصر والزمان وتجدّد العقل أيّ وزن، ولا ترى خيرًا إلا وهو كائن تحت الخير المنقول عن السلف في أجيال بكاملها،وليس في شخصيّات خاصّة أوأصحاب وحدهم.

وعلى هذا، فإنّ السلفيّين يسيئون الظنّ بالناس المعاصرين بشدّة، فلا يعملون إلا في ضوء عقول السلف وأفهامهم، ولا يتفاعلون مع الزمن، ولا يرجون الخير الكبير للعلماء والمرجعيّات الدينيّة والناس؛ إلا بقدر ما يقلّدون السلف. ومن الطبيعيّ أنْ ينتهي هذا التوجّه إلى الاستخفاف بالراهن، والاستعداد للتضحية به لصالح السلف. وليست المشكلة العويصة في أنّ السلفيّة تحترم الصحابة أو السلف، على الرغم من سعة دائرة هذه المفاهيم لديهم وشمولها لقرون ثلاثة في بعض تصوّراتهم؛ وإنّما المعضلة الكبيرة هي في أنَّ الأزمة تتعاظم حينما تسبّب الغرق في الماضي، وفي اعتبار الإنسان المسلم في القرون الثلاثة هو الميزان، ومن ثمّ إقصاء العقل وفهم المقاييس والموازين، والوقوع في فخّ التكفير والتشدّد والتطرّف. فآخر الزمان في العقل السلفيّ ليس لحظة نضج العقل الإنسانيّ؛ وإنّما لحظة الإفلاس المحض والسقوط التامّ واضمحلال الإنسانيّة. هي في الحقيقة صورة سوداويّة تستبيح السلفيّة فيها جميع أنساق التشدّد والتطرّف؛ تحت غطاء الدعوة إلى السلف، ولكنّها تخطّط لقمع الحاضر الراهن الواقع وضربه بالحديد والنار إن استطاعت!

وعلى النقيض من هذه الرؤية، وعلى الرغم من أهمّيّة مقامات الصفّ الأوّل من صحابة النبيﷺ، فإنّنا نجد أنّ الدعوة القرآنيّة تنحو دائمًا إلى

الرؤية التفاؤليّة المفعمة بالأمل تجاه آخر الزمن. قال -تعالى-: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾[1]. فهذه الآية ومثلها آيات كثيرة تدلّ على انتشار الفساد؛ لأنّ أدوات ارتكاب الجرائم تتطوّر، فيسهل القيام بها؛ لكثرة الوسائل الحديثة القابلة للتوظيف والاستخدام في الجانب السلبيّ في الحياة؛ ولكنْ بالمقابل نجد أنّه -تعالى- يقول:

-﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2].

-﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾[3].

-﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾[4].

-﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى ﴾[5].

وكذلك آيات أوضح تدلّ على الفتح والنصر وتحقّق إرادة الله -تعالى- في آخر الزمن. ولا شكّ في أنّ هذه الأحداث في آخر الزمن لا تأتي بفعل المعجزة البحتة؛ وإنّما للواقع الإيجابيّ، ولتوافر مقدّمات النصر، ولاستقبال الناس للحقّ المبين، ولوجود الموارد البشريّة والقيادات الربّانيّة دور مباشر في ذلك. إنّ للحركة التاريخية العالميّةمنحًى إيجابيًّا صعوديًّا ارتقائيًّا، وهذا على نقيض التفكير السلفيّ الذي يسعى إلى ضرب المهدويّة والدعوة إلى السلف بتفسيره الخاطئ مفهومًا ومصداقًا. قال -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴾[6]. إذًا ، فهي حركة عالميّة اجتماعيّة، وليس الوارث شخصًا واحدًا؛ وإنّما كتلة بشريّة عالميّة ضخمة يقودها شخص من آل البيت عليهم السلام اسمه المهدي عجل الله فرجه.

(1) سورة الروم، الآية41.
(2) سورة الروم، الآية47.
(3) سورة محمد، الآية7.
(4) سورة النساء، الآية 141.
(5) سورة النور، الآية 55.
(6) سورة الأنبياء، الآية 105.

إنّ التوجّه السلفيّ في حقيقته توجّه ماضويّ ينظر إلى الراهن والمستقبل بنظرة سوداويّة خطيرة تقتل في العقل والنفس بصيص الأمل، فلا أفق للإنسان السلفيّ ولا أمل في حياته.

وبما أنّهم يقتلون العقل، ويسحبون من تحته كلّ بساط، ويقيلونه، ويقصونه، فلا يملكون أدواتٍ لتطبيق ما يرونه سيرةً للسلف الصالح؛ وهي ليست سيرة، بل سِيَر كثيرة مشحونة بالتناقضات والاقتتال والفتن والتلاعن والتكفير والحروب، وهي منهجيّة سوداويّة لا تُخرِّج غير الاتّجاهات التكفيريّة والإباحيّة السياسيّة وتقديس الملوك والرؤساء. إنّ نهايّة العقل السلفيّ هذا هي إدارة التوحّش على غرار ما هم يعلنونه صراحة في التنظيمات الإرهابيّة، وبالتحديد في دولة داعش الوهّابيّة.

إنّ المستقبليّة القرآنيّة على عكس المستقبليّة السلفيّة السوداويّة، فهي مُفعمة بالأمل والتفاؤل وآفاق النور وانبجاس إشراقة الضياء الإلهيّ؛ ولعلّ الآيات التي تتحدّث عن أنّ العاقبة للمتّقين تشير إلى مثل هذه الرؤية الأمليّة:

-﴿ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾[1].

-﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴾[2].

-﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ... ﴾[3].

-﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[4].

(1) سورة الزمر، الآية 74.
(2) سورة القصص، الآية 5.
(3) سورة هود، الآية 86.
(4) سورة المائدة، الآية 54.

-﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].
-﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴾[2].
-﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[3].

ولا يخفى توافر الدلالة المنطقيّةلهذه الآيات على علاقات متينة سببيّة علميّة بين الالتزام بالإيمان والتقوى والصلاح، وبين التمكّن والحكم والإرث للأرض والنجاة في معارك الأمم وتنافس الحضارات في جميع الأزمنة؛ لأنّ السنن الإلهيّة الثابتة التي لا تحويل ولا تغيير لها تقتضي ذلك، وليست ظروف آخر الزمان باستثناء في ذلك كلّه. ومن المعطيات الهامّة في القرآن الكريم هو أنّ العاقبةَ والنتيجة وخواتيم الأشخاص والأشياء والأمم، هي ممّا تصنعها الإرادة الإنسانيّة التي ترتكز هي بدورها على المقاومة الباطنيّة والتقوى ومدى استثمار الإنسان قدراته العقليّة والفكريّة وتعمّق الرأي والفقه والعلم بالمعنى الواسع لهذه المفاهيم.

هنا، من الضروري الالتفات إلى أمر في غاية الأهمّيّة والخطورة؛ وهو أنّه على الرغم من أنّ حركة العقل الإنسانيّ في اتّجاه متصاعد كلّما اقتربنا من نهايات الزمن؛ فإنّ الهيمنة السياسيّة للفراعنة والطواغيت في آخر الزمن تبدو غالبة، كما إنّ الظلم الذي يُلحقونه بالإنسان في جميع المجتمعات يبدو أشدّ وأقسى. وعليه، نجد أنّ الأساس في حركة المهدويّة هو أنّ الإمام ﷺ يملأ الأرض قسطًا وعدلًا؛ بعدما تُملأ ظلمًا وجورًا، لأنّ التأكيد في نهضة الإمام ﷺ يكون على مواجهة الظلم والطاغوت، وليس على مواجهة الجهل والخرافة وما شابه؛ مع أنّ لهذه الأزمات -أيضًا- حصّتها في رسالة النهضة المهدويّة ومعاركها؛ غير أنّ المركز والأساس فيها هومكافحة الظلم،

(1) سورة يونس، الآية 103.
(2) سورة الإسراء، الآية 7.
(3) سورة القصص، الآية 83.

وتأمين الأمن والحقّ والعدل بواسطة الإمام ﷺ وقيادته الرشيدة الإلهيّة، وبواسطة الأمّة التي تتبعه.

وفي سياق موقف السلفيّة الماضويّة السلبيّ من العقل، تجدر الإشارة إلى تلك الهجمةِ الشرسةِ التي كان ابن تيميّة وقادة الحركة السلفيّة منذ قرون يشنّونها على جميع النصوص المرتبطة بالعقل، ظانّين ومُتوهّمين أنّها أخبار وروايات نَسَبَها الشيعةُ والمعتزلةُ إلى النبي ﷺ، ظلمًا وافتراءً! وأنا لا أدري كيف يواجهون الدعوات القرآنيّةالصريحة في حيويّة تنشيط العقل وترشيد الفكر وشحذه في المواجهات الفكريّة مع جميع الأخبار والنظريّات والمعتقدات؛ بما فيها القرآن الكريم، والله -تعالى- نفسه. والذي يبدو أنّ ماضويّة السلفيّ هي التي تُشوّش عليه بشدّة وتُعيق التفكيرَ والتعقّلَ في منهاجه.

هذه الماضويّة الفكريّة والسلفيّة المنهجيّة والرجعيّة الزمنيّة تتخبّط أمامَ بحر من الأخبار المفبركة وأمام كميّة هائلة من تناقضات الذين عاشوا في عصر النّبي ﷺ وبعده، فلم يبقَ للسلفيّ الكافر بالتعقّل والتفكير إلا أنْ يُخمد نورَ العقل، ويدعوإلى تحريم التفكير وتنشيط التكفير. هو بلاء أصيبت به الأمّةُ هذه الأيام، وسَبّبت خرابًا في الحرث والنسل.

2. الاتّجاه الثاني: الرؤية الواقعيّة البراغماتيّة العاجلة:

وهي تَوَجّه مَصلحيّ نَفعي، وفي أغلب الأحيان تتّصل بأصول العلمانيّة والليبراليّة؛ لأنّها تَوجّه غير مُستقلّ عن تلك الفلسفات، هي رؤية مادّيّة تلتقي في فلسفاتها مع الأصول النظريّة لتلك المدارس الفكريّة.

إنّ المدرسة البراغماتيّة الواقعيّة على عكس النظرة السلفيّة، ترفض العودةَ إلى التجارب التأريخيّة؛ لعائق الزمن، وقلّة الجدوى في الرجوع إلى الماضي، ولخوفها من أنْ تكون الماضويّةبمنزلة الرجعيّة التي تُلهينا عن حالنا وتشغلنا عن أن نهتمّ بحاضرِنا.

وعليه؛ يمكن أن نعتبر أنّ هذا التوجّه المادّي التجريبيّ هو -أيضًا- بُنية

الفكر العلمانيّ، أو -في أقلّ تقدير- مِن أسسها المادّيّة ومبرّراتها المنطقيّة، حسبَ تعبيرهم طبعًا، وكذلك فهي مدرسة ترفض الرهانَ على المستقبل البعيد، وإنْ أقبلَ أهلُها على المستقبل فَهُم يقصدون المستقبل القريب الذي يأتيهم بمصالح مادّيّة دنيويّة، ولا يُخرجهم من النزعة المادّيّة الدهريّة.

يصف الله -تعالى-هؤلاء بأنّهم متعلّقون بعواطفهم وقلوبهم ومشاعرهم بالأمر العاجل القريب؛ وهي من سمات السفاهة وفقدان العقل[1]؛ لأنّ التعقّل يقضي بضرورة أنْ يرمي الإنسان ببصره إلى أقصى المواقع والأزمنة والمراحل؛ لكي يدرك المصالح العليا، ويتفادى التحدّيات العظمى التي تخفى على النظر القريب، وتغيب عن الغارق في العاجلة. قال -تعالى-﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴾[2]، وقال -تعالى- أيضًا: ﴿ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾[3].

إنّ حُبّ العاجلة في الأدبيات القرآنيّة يُشكّل تهديدًا ضخمًا مُرعبًا للعقلانيّة والمصلحة الحقيقيّة للإنسان وللبشريّة، كما إنّ الدنيويّة المادّيّة الرافضة للإيمان بالغيب وبما وراء الدنيا تسبّب الكفر بالآجلة وباليوم الثقيل الذي يتحقّق فيه الجزاء ويتمثّل فيه العمل الإنسانيّ ثوابًا أو عقابًا.

أمّا المدرسة الدهريّة، فهي مدرسة ترفض الإيمان بالمبدأ وبالمعاد معًا، فلا تعتقد بوجود مصدر حكيم للكون، ولا بوجود يوم معاد يُحشر

(1) في نصوص روائيّة كثيرة جدًّا وردت العجلة والنظرة العاجلة؛ أي الإقدام على التخطيط والمبادرة والعمل قبل اكتمال الرؤية وتوافر البصيرة في العاقبة والمستقبل، ومع فقدان الأناة والصبر والدراسة، حيث قُرنتْ العجلة بالخُرق والحمق والسفاهة. ومن جملة هذه الأحاديث: «**وَالْعَجَلَةُ هِيَ الْخُرْقُ**» (الحرانيّ، تحف العقول عن آل الرسول، م. س، ص403)؛ «**مَن تَأنّى أصابَ أو كادَ، ومَن عَجِلَ أخطأَ أو كادَ**» (المتّقي الهندي، علاء الدين: كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، ضبط وتفسير: بكري حياني، تصحيح وفهرسة: صفوان السقا، لا ط، بيروت، مؤسّسة الرسالة، 1409هـ ق/ 1989م، ج3، ص99)؛ «**الأناةُ مِنَ اللّه، والعَجَلَةُ مِنَ الشَّيطانِ**» (المجلسي، محمد باقر: بحار الأنوار، تحقيق: إبراهيم الميانجي؛ محمد الباقر البهبودي، ط3، بيروت، دار إحياء التراث العربيّ، 1403هـ ق/1983م، ج68، ص340)؛ وكذلك عن رسول اللّه ﷺ: «**إنّما أهلَكَ النّاسَ العَجَلَةُ، ولَو أنَّ النّاسَ تَثَبَّتوا لَم يَهلِكْ أحَدٌ**» (م. ن، ص340). وهي روايات مدهشة في صراحة دلالاتها العقليّة الحكميّة على فساد الفكر والعمل إذا لم يكونا على أساس الرويّة والأناة والرؤية الاستشرافيّة والالتفات إلى العاقبة والمقاصد والنتائج في انسجام كامل متكامل بين النصّ القرآني وسيرة النبي ﷺ والأئمّة عليهم السلام.

(2) سورة القيامة، الآية 20.

(3) سورة الإنسان، الآية 27.

فيه الناس ويخضعون لاعتبارات المحاسبة والتقييم والإثابة والعقاب. هي عقليّة الكفر والإلحاد، فأصحاب هذه المدرسة يرضون بالدنيا وتطمئنّ بها نفوسهم، فلا يتورّعون عن ارتكاب أيّ جرائم تحت غطاءات مختلفة؛ لأنّ الرادع الأساس للجريمة هو العقل، وإخماده لا يترك له المجال في المقاومة أمام العبث. قال تعالى في هذا النوع من البشر:

-﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1].

-﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾[2].

-﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾[3].

-﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[4].

إنّ الله -تعالى- بوصفه لكفرهم وإنكارهم، وببيان أنّ موقفهم الإلحاديّ والكافر ليس عن علم؛ وإنمّا عن ظنّ، يَكشف لنا عن خلل مَعرفيّ منطقيّ في استدلالاتهم، ووسائل تفكيرهم، ومَدَياتِ قِصَر عقولهم. وعليه،فليس الاعتقادُ بالكفر بالمستقبل والساعة القادمة من العقل والحكمة؛ لأنّ الحركة في أفق مسدود لا تنتج، ولأنّ التخبّط لا يُوصلُ العاقلَ إلى هدفه مهما كان. فكيف يسع الإنسان أن ينفي المستقبل؟ وعلى أيّ أساس من المعرفة والبرهان يمكن أنْ يحكم الإنسانُ، قاصرُ النظر، ودون البحث في المستقبل على أمر لم يأتِ بعد؟ هذا إنكار لأسس العلم والمعرفة والعقلانيّة التي يدّعونها طبعًا.

وفي ضوء هذا، يمكننا استخلاص أنّ المسألة الأساس هي أنّ الكفر

(1) سورة النحل، الآية 107.
(2) سورة إبراهيم، الآية 3.
(3) سورة الأنعام، الآية 29.
(4) سورة الجاثية، الآية 24.

بالمبدأ وبالمعاد، وعدم الاعتقاد بأنّنا لله -تعالى- ومنه، حسبما نفهمه من قول الله تعالى: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون» بمغزاها الإبستمولوجيّ والعلميّ التوصيفيّ التكوينيّ، وضعف الإيمان بأنّ مصيرنا ومصير الكون من حولنا كلّه إليه -سبحانه وتعالى-؛ لأنّه الحقّ المحض والصالح لأنْ يعود إليه الخلق. إنّ هذا الكفر في أعماق معطياته المنطقيّة يتستّر على العقل والفكر. فعلاقة الكفر بالفكر علاقة قويّة؛ أي إنّ العلاقة السلبيّة النقيضة بينهما من أهمّ الأمور الواضحة لوتأمّلنا في القرآن الكريم في مفهوم الكفر والإلحاد بعيدًا عن الجمود والظاهر الفقهيّ للمسألة وأحكام الكفر والكافر في البعد الصوريّ. وسيأتي في هذه المقالةكلام تفصيليّ عن دلالات الكفر بمنهاج معرفيّ علميّ وبمنطق إبستمولوجيّ.

إنّ الكفر هو حرمان الإنسان من الرؤية البعيدة أزلًا وأبدًا؛ وبالتالي، فإنّ الكافر يعيش للحظته كالأعمى، فلا يرى خلفه ولا يرى ماضيه، وامتداد وجوده، ومنطلق حركته. ولا يعلم مِن أينانبثق وجوده، ولا يرى المدى المستقبلي والمَعَادي، ولا يملك رؤية حول ما سيؤول إليه مصيره، وإلى أين سيره وجريانه الطبيعيّ، فهو يعيش اللحظةَالعاجلة في تخبّط وعمى،فلا يُبصر ولا يسمع ولا يعقل؛ لأنّه يفتقدالبصيرة في أمر المبدأ والمعاد. وعليه، فإنّ ظاهرة الكفر من أهمّ عناصر الاستشراف والرؤية المستقبليّة؛ لأنّ الكافر لديه موقف مسبق صارم في الإنكار والرفض والحسم. وهذه الحالة من الدوغما والجزم تمنع صاحبها من أنْ ينفتح بالعقل على السيناريوهات المستقبليّة في كلّ شيء.

ثمّ هل الكفر آفّة للمعرفة وعائق للوعي والرؤية وسدّ للعلم أم لا؟ بالنّظر إلى الآيات من هذه الزاوية نقول: نعم، إنّه عنصر إعاقة البصيرة؛ لأنّ الكافر ساتر لعقله من أنْ ينطلقَ ويستبصر أويستشرف ويستقبل الأحداثَ ويُعدّ نفسه وغيره لمواجهتها[1]. إذًا فهي مهمّة مصيريّة للعقل، لو سددنا

(1) ومن هنا تأتي أهمّيّة مصطلح «بغتةً» في القرآن وصفًا للمجرمين والفجّار والفاسقين والكفّار؛ لأنّ الكافر قد ألحدَ وأنكرَ الاحتمالات المستقبليّة؛ ما جعله أمام كلّ حادث مستقبليّ لم يكنْ بحسبانه

طريقه في ذلك، فسنقيّده دون أنْ يقوم بمهمّته. قال -تعالى-: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾[1]، وهي سبب مباشر في فقدان الرؤية المستقبليّة والأزليّة كذلك. وهذا الواقع المؤسف للكافر يكفي لمنعه من الوصول إلى الحقيقة. هي رؤية إبستمولوجيّة للكفر والإيمان. والكفر والإلحاد والمادّيّة هي مجزرة العقل ومقتله ومأساة الإنسانيّة بمنطق العقل والحكمة. ومعلوم وواضح لمن يتأمّل في آيات القرآن الكريم أنّ القلب هو عاصمة المعرفة وتحقّق التعقّل، وليس الدماغ -مقارنة معه- غير خازنة حاوية للمعلومات، كما إنّ عمى القلب هو فقدان القدرة على التحرّك نحو المعرفة والعلم والرؤية وإخفاق الجهاز المعرفيّ في تكوين الفكرة الصحيحة عن شيء ودلالة الآية على ذلك في أشدّ مراحل الوضوح واليقين. هي نعمة البصيرة التي حُرم منها الكفّار والعاجليّون البراغماتيّون العلمانيّون المكتفون بالدهر الذي يعيشون فيه، والحال أنّ

متفاجئًا متباغتًا لاحيلة له للقيام بشيء. هي حالة الفراغ العقليّ والحسرة الأبديّة. والنزعة الكفريّة لا تلحق الكافر في القيامة فحسب؛ ولكنّه في الدنيا -أيضًا- يعجز عن ممارسة العقلانيّة في مواجهة الأحداث، وتميل نفسه إلى الإنكار والاستبعاد والجحد. إنَّ ما وُصِفَ به الكفر والكافر في القرآن خير شاهد على هذا العمى وفقدان البصيرة والقدرة على توقّع الأحداث، فبالتالي الضياع والضلال والخراب. وقد قُرن الكفر بالضلال في القرآن الكريم (انظر: سورة البقرة، الآيتان 108، 258؛ سورة المائدة، الآية 12)، وبالجحد والإنكار (انظر: سورة البقرة، الآيات 6، 258، 39، 93.. . .)، وبالعجز عن التفكير والتعقّل (سورة البقرة، الآية 93): ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْۚ ﴾؛ ففيها إشارة لطيفة إلى هيمنة الرؤية العاجلة على قلوبهم وعدم قدرتهم على تخفيف تعلّقهم بالعاجلة وعجزهم عن الرهان على الوعد الإلهي في الآخرة والصبر على المكروهات لأجل خير أكبر. هو خلل منهجيّ معرفيّ إيمانيّ يحدث فجوات خطيرة في منطق حياة الكفّار)، وبالخسارة في التعامل مع منجزاتهم في الدنيا (انظر: سورة البقرة، الآية 264 وغيرها آيات كثيرة جدًّا). هي آيات تدلّ على أنّ الكفر ليس معتقدًا يستحقّ صاحبه العذاب في الآخرة فحسب؛ وإنّما هي نقص في التعقّل وحمق في التفكير وأحكام سابقة فيها الجحد والإنكار بصرف النظر عن الأدلّة والبراهين التي تُقدّم إليهم. وحسب التعبير القرآنيّ فإنّهم ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة البقرة، الآية 6)؛ لأنّهم لا يريدون أن يسمعوا ويتأمّلوا ويتفكّروا بسبب هذا الجحد الرافض مسبقًا، وقبل أيّ حوار وتسامح مع الفرضيّات الأخرى. ويسبِّب الجحد والكفر أن يقع الشخص في تخبّط في التخطيط للحياة دنيًا وعقبًا؛ لأنّ الكفر بالآية -وهو تعبير شامل واسع منتشر في القرآن الكريم- يهدم علامات الهدي ويزيل الأنوار من أمام الإنسان الذي بدون الآيات الدالّة على الطريق سيتخبّط في مشيه عشواء، وهذه ظاهرة تتّصل بمفهومنا المستقبليّ في القرآن الكريم.

(1) سورة الحج، الآية 46.

خيريّة الآخرة قياسًا مع الدنيا أمر عقليّ يدركه الإنسان لوتفكّر وتدبّر.

قال -تعالى-: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[1]. إنّ قوله -تعالى-: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ والنتائج العقليّة للتأمّل في الأمر تؤكّد أنّ التفكير في المبدأ والمعاد، وفهمَ العلاقة بينهما لا يُبقي شكًّا في أنّ الدنيا ليست غيرَ متاع الغرور قياسًا مع الآخرة. وهي قضيّة عقليّة فكريّة، على الإنسان أن يكتشفها بالموضوعيّة والتفكير في الواقع، وليست أمرًا تعبّديًّا محضًا مستعصيًا على الخضوع للفكر والعقل.

تأتي الواقعيّة البراغماتيّة العاجلة على نقيض مع السلفيّة الماضويّة تمامًا؛ لأنّها مدرسة تدعوإلى الانتفاع باللحظة والتفكير لها والسعي إلى بناء العيش على مقتضيات الآن. هي فلسفة ونمط حياة، تتمسّك بالراهنيّة المفرطة التي تحرمها من عقلانيّة التأريخ والعبرة به من جهة؛ لأنّها ترى الراهن والماضي في صدام، وتنظر إلى العلاقة بين الحداثة والتراث باعتبارها إشكاليّة معقّدة فتفضّل الاهتمام بالحاضر والواقع، وتقطع العلاقة مع التراث، وتعيق التبصّر في المستقبل البعيد بالمقياس الزمنيّ في الدنيا من جهة ثانية.

وموقف المدرسة العاجلة -حسب التعبير القرآنيّ- هو تحديد المدى للرؤية في حدود الدنيا، ورفض إقحام شؤون الآخرة والعقبى في منطق الحياة.

وتفتح الآيات التالية آفاقًا واسعة أمام العقل ليخوض فيها، فيتّسع ويكبر بالتأمّل والتدبّر في مفاهيمها الرهيبة: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧ أَوَ لَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ۝٨ أَوَ لَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ

(1) سورة الأنعام، الآية 32.

أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾[1].

فما نفهمه من الآيات هو الآتي:

- إنّ الآخرة ليست مفصولة عن الدنيا في حقيقتها. والذين يغفلون عن الآخرة هم الذين يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا. وعليه، فإنّ من يتعمّق بباطن الدنيا ولا يغرق في ظاهرها، يبلغ الآخرة ويعيها في هذه الدنيا؛ لأنّ الآخرة هي الوجه الآخر للدنيا وهي غير مفصولة عنها.
- التفكّر والتعقّل والتدبّر في الأنفس والآفاق يضمن تَبَيّن الحقّ، ويكفل للعاقل المتأمّل اكتشاف الحقّ وفهمه. وهذه هي المنهجيّة الصحيحة في الولوج إلى مملكة الحقيقة والقرب من الله -تعالى- والإيمان بلقائه. هي عمليّة استشرافيّة عقليّة يدعو إليها القرآن الكريم محذّرًا الإنسان من أنْ يغفل عن الرؤية ومداها البعيد والغفلة عن التفكير في المستقبل والانجماد العقليّ في الدنيا وظاهرها.
- عاقبة عدم التفكير والتعقّل في الدنيا هي وقوع الإنسان أسيرًا بين مخالب الجهل وجعله عرضةً لتهديداته الوجوديّة، وكفره بما وراء المادّة والشكل والحسّ المحض. وهي نتيجة طبيعيّة؛ لأنّ الإنسان الجاهل بأمر والغافل عنه قد يكفر به. وعليه؛ فإنّ الكفر ينتج عن جهالة وحمق ويؤدّي إلى مزيدٍ من السفاهة والجهل والفسق وردائة النفس، ومن حيث لا يشعر الإنسان يقع في الاستدراج ما دام يضع سدًّا مانعًا أمام العقل والتسليم به.
- السير في الأرض لاكتشاف ما جرى على الماضين والسابقين جزء أساس من اكتشاف قواعد الحياة وسننها الثابتة التي يجب أن نتّخذها عبرًا ودروسًا نبني عليها الراهن والمستقبل، وهي من الناحيّة المنهجيّة من أصول التفكير المستقبليّ القرآنيّ.

(1) سورة الروم، الآيات 7-10.

- إنّ التأمّل في الأزمنة المستخدمة في الآيات يؤكّد العلاقة الشبكيّة بينها جميعًا؛ حيث لا يمكن للإنسان أن يلتفت إلى بعضها ويغفل عن بعضها الآخر؛ كما إنّ استحضار الماضي والمبدأ الأزليّ، والمستقبل القادم والمعاد الأبديّ، والواقع المعاش القائم، هو أمرٌ قرآنيّ رشيد وعنصر أساس في بلوغ الحقيقة وتحقيق السعادة.

3. الاتّجاه الثالث:

وهو التوجّه العقليّ الذي يأتي بين المنزلتين وبين الاتّجاه السلفيّ الرافض للعقل والمتأسّس على النصّ والظاهر والماضي، والاتّجاه الدهرانيّ العلمانيّ البراغماتيّ الكافر بالمبدأ والمعاد معًا والراضي بالدنيا المحبّ لها والمطمئنّ إليها.

إنّ القرآن الكريم والإسلام الصحيح يدعوان إلى تفعيل العقل ومراكمة النظر والتدبّر باستخدام العبرة والفحص التأريخيّ والنظر إلى الماضي من جهة، والتفكير بالسنن الثابتة العلميّة المنطقيّة التي يرشدنا إليها الله -تعالى- في الآيات الباهرات الزاهرات، ويؤكّدها العقل ويتقبّلها قبولًا حسنًا حول المآلات والمصائر الآتية والآفاق المستقبليّة بجميع مراحلها التي تفتح للعقل سبلًا واسعة، وتعبّد الطريق للحركة الرشيدة له.

إنّ عددًا كبيرًا جدًّا من الآيات القرآنيّةيربط التقوى بالعقل والحكمة، ومنها الآيات التي تدعو إلى العلاقة المتينة بين العقل والقلب؛ كما في الآيات التالية:

-إنّ القلب هو مركز الفهم والتعقّل. يقول تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾[1]، فجعل الإنسان يفقه ويفهم بقلبه.

-﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ

(1) سورة الأعراف، الآية 179.

بِهَآ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾[1]، فإنّه ينسب إلى القلوب عملَ العقل والفكر.

وتجدر الإشارة إلى أنّ للعقل الأوّلويّة في الآيات القرآنيّة؛ لأنّه أتى بذكره في آيات القلب بحرف باء؛ أي إنّ على البشر أنْ يعقلوا بقلوبهم، كما اعتبر -تعالى- أنّ العقل هو العامل الفعّال الذي يجب أن يبني على محتويات القلب؛ أي المدركات التي يحصل عليها الإنسان بالقوى الإدراكيّة التي يملكها، فتتحوّل المعلومات والمعطيات المتبعثرة الجزئيّة في قلبه إلى استنتاجات وبراهين وأدلّة تصلح لأنْ يبني عليها العقل في قيادة حركة الإنسان. هوحقًا أمر مذهل يستأهل التوقّف والتأمّل، والرؤية السلفيّة عمومًا محرومة من النظر إلى المكانة المركزيّة المذهلة للعقل في القرآن الكريم.

وفي هذا الاتّجاه القرآنيّ حول التعامل مع الماضي والحاضر والمستقبل نشهد أنّ للماضي مهمّته المصيريّة؛ لأنّ الإنسان لو سار في الأرض وتعمّق في ما حصل ومرّ على الإنسان -كما سبق أن ذكرنا بعض الآيات القرآنيّة التي تتناول هذا الأمر- فإنّه سيوقد عقله ويشحذ نظره ويعتبر ممّا حصل على الناس، وبالتحديد على الذين جمعوا وعمّروا وأثاروا في الأرض وأصبحوا أقوياء أشدّاء، ولكنّ ما جمعوه تلاشى في آخر أمرهم، وتشتّت كياناتهم، وفسدت قراهم، واضمحلّت حضاراتهم، ولم يبقَ منها إلا هيكل من تراب على أحسن التقادير.

ولكنّ عقلًا حاضرًا حيًّا عصريًّا من الراهن واللحظة والزمن ينبغي له أنْ يتحرّك؛ لأجل أنْ يستنبط القيم من الماضي والحكم من السلف، دون أنْ يُخاف عليه من الوقوع في شبكات التأريخ وأفخاخه، وبعيدًا عن النصّيّة والظاهريّة والرجعيّة والجمود والغلوّ. فمشكلة السلفيّة هي أنّها تفهم الإسلام على أساس بعض النصوص، وليس تحت قيادة العقل الفعّال الحيّ

(1) سورة الحج، الآية 46.

المعاصر، فليس له حدود واضحة للمصلحة والمفسدة؛ إلا من نافذة العقل السلفيّ التأريخيّ الكلاميّ الجامد.

وكذلك المستقبليّة القرآنيّة في هذا الاتّجاه هي رؤية يستشرف بها المؤمن والمتّقي والمسلم على ما يُتوقّع أنْ يواجهه من تهديدات وتحدّيات، واستعدادًا لمآلات الحياة والمجتمع، مستفيدًا من هذه المستقبليّة ومعطياتها في عمليّة التخطيط الاستراتيجيّ للحياة التي يعيشها. إنّها استشراف لا يؤدّي إلى غيبوبة المسلم، لا في الماضي، ولا في المستقبل. ولا يُعرّض حياته الراهنة في الدنيا للخطر عبر التوجّه الاستشرافيّ؛ بل يقصد إقصاءها عن التهديد والخراب. وينوي بناءَه وتكوينه على أساس التوجّه إلى الماضي والمستقبل، بوصفهما بُعدين لحركة العقل والحكمة.

ثالثًا: الرؤية المستقبليّة القرآنيّة وضرورات مواجهة السلفيّة والحداثة العلمانيّة:

إنّ الوضع المأساوي للإنسان الفرد من الناحيّة التربويّة والقيميّة الأخلاقيّة جنبًا إلى جنب مع الناحية الأمميّة الحضاريّة الاجتماعيّة في أكثر من بعد، مَرَدّه إلى فقدان المدى العميق والبعيد للرؤية والتبصّر. والمؤكّد قرآنيًا أنّ الرؤية العاجلة هي رؤية شيطانيّة على مستوى النفس والجهاد الأكبر، ودنيويّة مُفسِدَة للحياة ترتبط بفقدان البصيرة والقدرة على الاستشراف والاستقبال على المستوى الحضاريّ والاجتماعيّ.

وفيما يخصّ إفقاد الشباب المسلم قدرتهم على الاستشراف في المستوى الروحيّ والسياسيّ والاجتماعيّ، ثمّة مخطّطات مرعبة وُضِعت لأجل تحقيق هذا القصد المشؤوم، وهم يروّجون لها؛ لكي يلتهي العقل المسلم بالعاجل ويركّز في الحياة على التسلية والرفاهيّة والأمن والراحة واستقرار الحياة العاجلة حتّى لوكان جميع ذلك على حساب الحياة الأخرى. ويستخدم المستعمرون جميع الطاقات والفرص، وبالتحديد يأتون بثقل ثقافاتهم وفلسفاتهم ومنتوجاتهم البراقة اللمّاعة؛ لأجل أنْيشغلوا العقلَ المسلم

بالرفاهيّة العاجلة عن القضايا المصيريّة الكبرى للأمّة الإسلاميّة.

ولأنّ صفة العجلة أتت في القرآن الكريم باعتبارها تحمل شحنةً سلبيّة تُفقد الإنسانَ والمجتمعَ القدرةَ على الأناة والصّبر والاستشراف؛ وتفقده بالتالي التعقّل والتروّي، وبما أنّ التعجيل والعجلة والاستعجال تعني -في كنه معناها- الإقدام على برنامج عمليّ أوالاعتقاد بفكرة نظريّة دون وجود أفق ومدًى للرؤية، وقبل تكوين البصيرة فيما يخصّ المآلات والحالات التي يمكن أن تنجلي في المستقبل، وقبل اكتمال الصورة والمشهد بجميع عناصره. لذلك فقد يُستحسن إلقاء الضوء -بقدر ما يحتمله هذا النصّ- على آيات تُفسّر لنا أهمّيّة الصّبر والعزم والتفكير المستقبليّ مُقابل تفنيد العجلة والاستعجال الناشئين من عدم القدرة على التفكير الصحّيّ والعميق، وعدم درس مآلات الأشياء والأفكار والأحداث.

ولأسباب سبق أن أشرنا إلى بعضها، فإنّ الرؤية العلمانيّة الحداثيّة هي رؤية عاجلة قد حسمت أحكامها ضدّ التفكير الدينيّ الميتافيزيقيّ، وأنكرت وجود القيامة والآخرة وما وراء المادّة، لا عن عقل وحكمة أوعن أناة وصبر على البحث والفحص العلميّ، وإنّما -أيضًا- عن «عجلةٍ واستعجال» حسب تعبير القرآن الكريم. إنّ المادةّ أمر مشهود ملموس قريبٍ من أدوات الحسّ والإدراك المادّيّ، يحسّ بها الإنسان بجميع مشاعره فورًا وعاجلًا، ولكنّ الحكم فيما يتّصل بالمسافات البعيدة عن الإنسان وقواه المدركة المادّيّة لا يمكن أن يُقاس بالمختبر التجريبيّ المادّيّ وبالمنهجيّة العاجلة والطبع المستعجل الملول!

بناءً على ذلك، ينبغي على الإنسان أنْ يسعى إلى تنشيط العقل الذي يتحرّك بسرعة قياسيّة في فضائات غير مادّيّة، ويأتي بالحكم حتّى وإنْ لم تصل اليد المادّيّة إلى مواضيع حِراكه ونشاطه ودرسه.

ويشترك العقل الحداثيّ الوضعيّ والعقل السلفيّ في قصور النظر والجمود وفقدان البحث الموضوعيّ العلميّ، فالأوّل يقصر نظره في تجاوز المادّة، والثاني تقتصر جهوده الفكريّة في نطاق النصّ والظاهر.

وعليه، فإنّ العقل فيهما مستقيل إلى حدّ كبير؛ لأنّ المادّة في المختبر تتفاعل مع القوى الإداركيّة الحسّيّة الإنسانيّة، وكذلك السلفيّة تتعامل مع النصّ ودلالاته دون الاستعانة بالعقل وقدرته على تقدير المآلات والمقاصد. وحتّى المقاصد التي تمّإدراجها ضمن اللائحة الفكريّة الإسلاميّة المقرّبة من الأوساط السلفيّة هي مقاصد ترتكز إلى الظاهر والجمود على النصّ، ولا تعترف بالعقل كاشفًا مرموقًا للغايات والحقائق.

والآيات الدالّة على عواقب العَجَل والعجلة في النفس كثيرة جدًّا، أذكر طائفة منها مع تعليقات توضيحيّة أرجو أن لا تبتعد عن صميم دلالات الآية الواضحة أصلًا:

-﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٦٧ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ٦٨ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾[1].

إنّ قصّة النبي موسى عليه السلام والعبد الصالح عليه السلام تفتح آفاقًا لامتناهيّة أمام العقل ليدرك أنّ الرؤية المستقبليّة هي مفهوم نسبيّ قد تَصْدقُ مرتبة من النقص والضعف فيها على نبي من الأنبياء العظام عليهم السلام. ومن الواضح -هنا-وفي هذه القصّة أنّ النبي موسى عليه السلام قد انشغل عقله بالأسباب العاجلة القريبة وغفل -أوتغافل- عن الأسباب الضاربة في عمق الماضي أو المستقبل، فلو صبر موسى عليه السلام ولم يعجل في الحكم على ما لم يطّلع عليه، ولم يتسرّع في إصدار تلك الأحكام لأدرك من الحقّ أكثر بكثير. هذه حال نبي من الأنبياء عليهم السلام مع كونه من الأساس المبادر إلى طلب الحكمة والعلم من ذلك الولي الإلهيّ الصالح بكلّ أدب وتواضع، ومع كونه عالمًا بقدر الجهل الذي فيه، أراد أن يتعلّم على يدي ذلك العبد الصالح، وهذه باتت مآلاته، فما بالكم بنا -نحن الفقراء- في علمنا الذي لا مجال لأن يقاس معه؟

(1)سورة الكهف، الآيات -66 69.

هي قصّة تربويّة لتنشئة الإنسان على صفة الصبر ونبذ الاستعجال والقضاء الصارم قبل العلم الحاسم. فلو تربّى الإنسان على حبّ التفكير والتأنّي والصبر والاستشراف لحصل على الخير الكثير.

-﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ. . . وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ﴾[1]. في ما يتعلّق بهذه الآية يعتقد بعض المفسّرين أنّ النبي داود عليه السلام قد وقع في خطأ القضاء والحكم بسبب عدم التأنّي وقلّة الصبر والاستعجال في إصدار الحكم بين الخصمين المدّعين. من جهتي، لم أقم باستقصاء التفاسير والتأكّد من هذا التفسير؛ وبخاصّة أنّ قصص النبي داود عليه السلام قد دخل عليها كثير من الإسرائيليّات الخرافيّة، وقد تأثّر بها عدد هائل من تفاسير المسلمين،مع كونها لا تتناسب مع شأن النبي الكريم المعصوم عليه السلام، غير أنّي ذكرت هذا التفسير من باب تجميع الشواهد الأوّليّة التي تتوافق مع نصّ القرآن الصريح تقريبًا في المؤاخذة اللطيفة على الحكم. وعلى كلّ حال، فإنّ الآيات التي تؤكّد فساد التبعات الناتجة عن التسرّع والاستعجال هي أكثر من أنْ تُحصى، فلا يقدح بهذا المنطق وبراهينه القرآنيّة أنْ يكون تفسير هذه الآية غير مؤكّد.

-﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ۝٤٨ لَّوۡلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ۝٤٩ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2]. تدعو الآية إلى الصبر وتبيّن المضاعفات الخطيرة الناتجة عن ضعف الصبر والإقدام بخطوات ضدّ قومه حسب بعض التفاسير.

-﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾[3]؛ وهي آية صريحة في نهي النبي ﷺ عن التسرّع في قراءة ما ينزل قبل اكتمال النزول وتمام الآيات المرتبطة.

(1) سورة ص، الآيات 21-24.
(2) سورة القلم، الآيات 48-50.
(3) سورة طه، الآية 114.

-﴿ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ﴾[1]. تنصّ هذه الآية على وجود طبع إنسانيّ يميل إلى التعجيل والمبادرة إلى الردّ والإقدام قبل نضج المشهد ورشد الموقف واكتمال المراحل، ما يسبّب حرق الفرص والتسرّع في الحكم والقضاء والحسم في المعتقدات الإيمانيّة أو النشاطات والأعمال. فلو صبر الإنسان ولم يعجل في أمر دينه ودنياه لشهد من الخير الكثير؛ لأنّ مَنازع الصبر عند الإنسان أقلّ من دوافع العجلة والتحرّك العاجل. فنلحظ في الآية أنّ الإنسان العجول يربط صدق البرهان وكذبه بسرعة الوقوع، مع أنّ عدم وقوع الوعد في فترة قياسيّة محدّدة لا يعني من الناحية المنطقيّة والعقليّة أنّ الخبر والادّعاء كاذب، فلا يمكن القول: «متى هذا الوعد إنْ كنتم صادقين»! لأنّ للوعد لحظة محدّدة وإنْ كانت غير مكشوفة لنا، فأنّى لنا أن نكفر بما لا نراه واقعًا ماثلًا أمامنا؟ ويبدوأنّ الآيات التي تتحدّث عن طبيعة إنسانيّة وميولها ونزعتها نحوصفة من الصفات تشير إلى مساحة نفسيّة طبيعيّة يتطلّب إصلاحها وتهذيبها جهدًا كبيرًا وتنشئة تربويّة صعبة.

-﴿ وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ﴾[2]؛ وفيها تأكيد على مفاهيم الآية السابقة وضرورة أنْ يخضع الإنسان لعمليّة تربويّة دقيقة بمنهجيّة عمليّة نفسيّة تُوجِد فيه صفة الصبر والقدرة على التأنّي والتروّي والنظر إلى العواقب والنهايات في تحقيق البصيرة في السلوك. هي منهجيّة قرآنيّة لضبط النوازع الإنسانيّة والتحكّم بمشاعره ورغباته من خلال صناعة الرؤية والتروّي في التفكيربالبعيد، وبتأهيل النفس وتعويدهاعلى سعة النظر، وشرح الصدر وبعد الأفق، منعًا للوقوع في فخّ الاستعجال؛ إذ ينبغي عليه ممارسة الاستشراف والنظر إلى العاقبة والغد حسب التعبير القرآنيّ.

(1) سورة الأنبياء، الآية 37.
(2) سورة الإسراء، الآية 11.

-﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[1]. والسبب في ذلك قد يرجع إلى أنّ السيّئة بالغالب تُروي النفسَ وتُشبعها بالأمر العاجل، وأنّ النفسَ نَزوعة تنزلقُ بشدّة نحوالرغبات القريبة والنّعيم العاجل؛ فلا صبر لها على التضحية بالقريب الفاني لاكتساب البعيد الباقي إلا بالتربية والإصلاح والتزكية والتقوى. ولعلّ من أهمّ فلسفات العبادات ومقاصدها أنّ فيها تحقيقًالصفة الصبر على مواجهة العاجل وتمكين النفس من التخلّي عنه لصالح الآجل الأصلح.

-﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۚ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[2]. إنّ لقاء الله -تبارك وتعالى- هو أكبر خير يمكن تصوّره لما له -سبحانه وتعالى- من الجمال والرحمة واللطف والبركات اللامتناهيات. فلو أراد الإنسان هذا الخير، وتأمّل في تحقيقه، ورغب في أن ينال رضى الله -تعالى- في هذا اللقاء وأن يكسب الجنّة والعيش الخالد فيها، فعليه أنْ يصبر أمام عاجل حلو الدنيا لأجل آجل عظمة لقاء الله في الآخرة. ولا نقصد هنا الزمن؛ لأنّ الزمن -هنا- نسبيّ لا أصالة له، والإنسان وإنْ صَبَر ولم يستعجل، بل تحمّل كِلفة الأناة والمعاناة لأجل الخير،فسيَلقى الله -تبارك وتعالى- في اللحظة نفسها وبالمرتبة الملائمة لصبره وتقواه. وفي الآخرة التي هي الوجه الآخر للدنيا تزول العراقيل من أمام القوى الإنسانيّة المدركة، فتتجلّى الرحمة والجمال والأسماء كلّها بأعلى ما يمكن أن يتخيّله الإنسان وما لا يمكن أنْ يتخيّله الآن.

-﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ . . . فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾[3]. استفسار يشير إلى قصور النظر، وضعف الأناة،

(1) سورة الرعد، الآية 6.
(2) سورة يونس، الآية 11.
(3) سورة السجدة، الآيات 28-30.

وقلّة الصبر، واغتشاش المنطق، وضعف الفكر والعقل؛ لأنّ القائلين المستفسرين المستعجلين في الآية يريدون وضع معادلة خاطئة، فيها المغالطة الكبيرة، فيدّعون أنّ الفتح الموعودَ إن لم يأتِ الآنَ، فلن يأتي بعد الآن أبدًا، وعليه؛ فإنّ الوعد يصبح كاذبًا! ولكنّ الصّابر ينتظر، وقد يطول الانتظارُ فتراتٍ زمنية قياسيّة قد تصل إلى عقود من السنين في بعض القضايا، وعلى المؤمن في بعضها أن يتهيّأ نفسيًّا ليصبر طيلة حياته على مصيبة أو وعد إلهيّ أو بلايا ومصائب لا تفارقه، فيرجو الخير واللقاء ليوم الآخرة، دون أن يتجرّأ على التشكيك في صدق الادّعاء لمجرّد عدم تحقّق الفكرة في برهة من الزمن.

-﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[1]. من الطبيعيّ أن يكون صبر الأنبياء عليهم السلام والدعوة الإلهيّة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الصبر، بقدر أهمّيّة مآلات وجودهم وفلسفات مباعثهم ومقاصد شرائعهم فيما يتعلّق بمصير أممهم ومصير الإنسانيّة جمعاء. ولعلّ دعوة ربّ العالمين بعضهم عليهم السلام للصبر؛ لأنّ نتائج رسالاتهم قد تأتي خلال قرون مقبلة، فلا يمكن أن يتحقّق الصبر في أنفسهم؛ إلا إذا كان لديهم رؤية مستقبليّة تقرب من رؤية المؤمن بالمعاد والمعلّق الأمل على تحقّق الخير فيه؛ لشدّة البعد الزمنيّ. وعليه؛ أعتقد أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يصبر على ما أصابه لعلمه التفصيليّ بما يصيب أمّته في آخر الزمن من شرّ أو خير. ومن هنا، فإنّ العزم فيهم يتناسب مع صبر مطلوب منهم، كما إنّ عزمهم وتصميمهم على تحقيق إرادة الله -تعالى- ينسجمان مع معاناتهم ومع البلايا التي يلقونها في سبيل الدعوة، كما روي عنه عليه السلام: «**ما أوذي نبي كما أوذيت أنا**»[2]، حيث يدلّ هذا على أنّ

(1) سورة الأحقاف، الآية 35.

(2) المجلسي، بحار الأنوار، م. س، ج39، ص56.

الصبر المحمّديّ هو أعظم من صبر جميع الأنبياء عليهم السلام؛ لأنّ الأذى الذي تعرّض له هو الأكبر على الإطلاق. وهذه زاوية تربويّة هامّة من شخصيّة النبي صلى الله عليه وآله وسيرته على الأمّة أنْ تقتبس منه النور للتمرّس على الصبر والعزم، وأنْ لا تسقط أمام ضغوط الواقع طمعًا أو خوفًا. يريد القرآن الكريم من المسلمين، بل من الناس جميعًا، أنْ يعزّزوا قدراتهم النفسيّة على الصبر وعلى ترك الاستعجال فيما يتعرّضون له من ضغوط النفس أو ضغوط الأعداء، فينفتحوا على الصبر والأناة والآفاق المستقبليّة والنظر إلى المآلات البعيدة. إنّها صفة هامّة في ترشيد التخطيط والتصميم والدراسة لحركة الإنسان والأمّة في جميع الأبعاد والمسارات

ولا يرقى الشكّ إلى أنّ الواقعَ الموضوعيّ المؤسف للمسلمين في مستواهم الحضاريّ المُقلِق[1]، وضعف مجتمعاتهم من الناحية التنمويّة والعقليّة والعلميّة والأمنيّة، هو أساس الحثّ في هذه المقالة على التفكير المستقبليّ من ناحية، وعلى تطهير الأمّة من بؤر التكفير والماضويّة السلفيّة المتشدّدة والعدوانيّة ضدّ العقلانيّة والأخلاق والعلم من ناحية ثانية. ويبدو لنا أنّ الرؤية العلمانيّة والسلفيّة دون أن يكون بينهما مذكّرة تفاهم مسبقة، موقَّعٌ عليها، غير أنّهما بالفعل يقومان بمهمّة مشتركة؛ وهي إضعاف بنية الأمّة وتدمير فرصها في الإقلاع الحضاريّ في العالم.

(1) على الرغم من أنّ حركة قيّمة حرّضت المسلمين على التفكير بالنهضة والثورة ضدّ الفساد العقليّ والعمليّ قد انطلقت من قرنين تقريبًا غير أنّ مالك بن نبي المفكّر الجزائريّ الشهير بمشروعه المعروف بمشكلات الحضارة قد وضع موسوعة كبيرة من الدراسات والمحاضرات حول عناصر التخلُّف الحضاريّ للمسلمين، وقدّم أنموذجًا تأريخيًّا في مناهج الفهم الحضاريّ والوسائل والأدوات المساعدة لتحقيقها. أرجو من القارئ الكريم الاهتمام بأنموذجه الفكريّ المقترح في إعادة الطرح الحضاريّ للمسلمين. وكذلك ما طرحه الإمام الخميني الراحل قدس سره في مشروعه النهضويّ قد فاق التوقّعات في فعّاليّته ونجاحه النسبيّ؛ قياسًا مع مشاريع النهضة العربيّة والإسلاميّة للسيِّد جمال الدين الأسد آباديّ الأفغانيّ، والإمام محمد عبده. إنَّ درس التجارب الكبرى للنهضويّين المسلمين وأصحاب الأطروحات الجادّة في التجديد الإسلاميّ يؤكّد الإجماع على تهديدين كبيرين؛ هما: الرجعيّة والسلفيّة المفرطة المسبّبة لإقصاء العقل والحكمة في المنهجيّة المعرفيّة من جهة، والعقلانيّة المحضة المتجبِّرة المستغنية عن الشرع والوحي والدين من جهةٍ أخرى، وبينما تمثّل التهديد الأوّل في السلفيّات الإسلاميّة –مع غضِّ النظر عن المذاهب التي احتضنتها- تمثّل التهديد الثاني في الحداثة والعلمانيّة وملحقاتها؛ كالقومية وما شابهها من مشاريع عالقة لا هي عقليّة علميّة موضوعيّة، ولا هي دينيّة ذات أيديولوجية سماويّة.

إنّ أحوال الأمّة الإسلاميّة الرديئة في جميع أبعاد التنمية البشريّة والعلميّة، وعجزها عن مواجهة الاستحقاقات الكبرى على الصعيد المحلّيّ والعالميّ، وعدم قدرتها على إنشاء التكتّلات الكفوءة في العلاقات بينها وبين أبنائها أو مع الأطراف العالميّة الفعّالة الأخرى، هي أمورٌ ناتجة جميعها عن ضعفٍ في العقل القياديّ والإداريّ، وعن فقدان للرؤية الواسعة البعيدة المدى، التي تسعى إلى استعارة العقل الاستراتيجيّ من الخارج، وصناعة الوعي العربيّ والإسلاميّ على مقاسها، على الرغم من أنّ المديات الفكريّة والعقليّة والآفاق المعرفيّة القرآنيّة هي الأوسع في صناعة الاستقبال والاستشراف؛ بل إنّ المستقبليّة هي السمة الأساس الأولى والأعلى في جميع الخصائص الفكريّة والعمليّة في الإسلام. كما إنّ المستقبل في التوجّه القرآنيّ خطّ زمنيّ يمتدّ إلى الأبديّة والذي تدلّ عليه المركزيّة هو المعاد في أقصى المدى الزمنيّ لهذه المستقبليّة.

وانطلاقًا من تجربة معرفيّة شخصيّة في ضوء المنهجيّة العلميّة القرآنيّة، لم أكتشف أهمّ من أنّ الجوهر المعرفيّ القرآنيّ قد بُني على حقيقة لافتة؛ وهي إمكانيّة التوقّع لتبعات العمل والمعتقد ونتائجهما في المستقبل. هذا وقد نزل القرآن الكريم من أوّله إلى آخره ليُنبّئ الإنسانَ بأنّ لكلّ تصوّر ومعرفة وعملٍ غايةً ومقصدًا ونتيجةً طبيعيّةً علميّةً عقليّة، وأنّ هذه الغايات والنتائج والتبعات المتحقّقة في مستقبل الأفكار والأعمال والأشخاص، يمكن فهمها وتصوّرها، ويمكن اكتشافها ومعرفتها، ويمكن البناء عليها والتخطيط الاجتماعيّ والنفسيّ ووضع برامج التغيير والإصلاح وفقًا لها.

هذه الحقيقة المدهشة بالنسبة لي كانت بمنزلة قاعدة ذهبيّة استطعت أنْ أقف عليها. حقيقة مذهلة أوصلتني إلى القناعة بعلميّة المنطق القرآنيّ والمنهجيّة السببيّة العابرة للمناهج المعرفيّة المادّيّة، وبخاصّة لوأخذنا بالنظر أنّ ما قاله القرآن الكريم في هذا المضمار لم يشهد طيلة التأريخ أيّ ناقض ونافٍ حقيقيّ له من العقل والعلم.

وفي اعتقاد كثيرين أنّ المستقبل أمر غامض مبهم يصعب تصوّره أوتوقّعه. وهوبعيد المنال وصعب الاصطياد؛ إذ يعتبر هولاء أنّ التفكير في المستقبل يأتي في سياق التكهّن؛ لأنّهم يتخيّلون أنّ المستقبل أمر لم يقع ولم يحصل. وعليه، كيف يتوقّعه الإنسان أو يخبر عنه؟ وبعضهم من أصحاب النزوع السلفيّ يرون أنّ التفكير بما سيقع ضرب من طلب علم الغيب، فيحرّمونه[1]. ومن هنا، يجب التلميح إلى أنّ الدراسات المستقبليّة- حتّى في النظر القرآنيّ- هي حركة العقل من الماضي والراهن بقوانينه الثابتة وسننه المحكمة وقواعده المجرّبة القابلة للقياس والتعميم نحوالمستقبل القادم.

وبناءً عليه، فإنّ دراسة المستقبل منوطة بفرضيّة سابقة؛ وهي حتميّة القواعد الطبيعيّة العلميّة التي تسود الوجود، وهي التي تُوجِد في النفس اطمئناناً وثقةً بالوجود وقواعده الحاكمة التي ستؤدّي معرفتها إلى إمكانيّة التوقّع والاستشراف[2].

إنّ الحلم -هنا- يأتي في سياق معنويّ قرآنيّ خاصّ قد يتمايز عن التمنّي والأمنيّة الفاقدة للرصيد العقلانيّ والحكميّ؛ لأنّ الحلم بمستقبل زاهر يتحقّق فيه أمل الإنسان، مفهوم عميق مرتبط بالرؤية الوجوديّة الإنسانيّة. ولونظرنا إلى آيات الإعداد والسعي والتفكير وغيرها من مضامين الكتاب الكريم في هذا المضمار لرأينا أنّ المنحى العامّ للدعوة إلى هذه المفاهيم هو بمنتهى العقلانيّة والحكمة والموضوعيّة، ولأجل مقاصد معقولة جدًّا

(1) البوسنوي، أدمير زكيتش: «الدرسات المستقبليّة وتاريخ الدعوة»، التقرير الاستراتيجي لمجلّة البيان، مجلّة البيان، تصدر عن المنتدى الإسلاميّ، الجزيرة، الإصدار الرابع، 1428هـ ق/2007م، ص5؛ وانظر: «الغيب والمستقبل»، حوار في حلقة من برنامج الشريعة والحياة الشهير،2010/11/11م، على الرابط: htt://www. aljazeera. net/rograms/religionandlife

(2) المتابع للقرآن الكريم ومنهجيّته المعرفيّة يشهد باليقين على المنحى العقليّ والمعرفيّ والعلميّ للآيات الكريمة فيه وفي جميع نظمه المعرفيّة أو أحكامه أو معتقداته وقِيَمه، كما إنَّ الرؤية المستقبليَّة القرآنيَّة هي لضمان تأمين مصالح الإنسان في الدنيا والآخرة وتحقيق الحُسنَى والصلاح والسعادة فيهما. هذه النزعة العلميَّة والعقليَّة كامنة في جميع السياقات؛ بما فيها المفردات والمصطلحات العقيديّة؛ كالكفر، والإيمان، ومفهوم التقوى، والمعاد، وهكذا في جميع المنظومة القرآنيّة المحكمة بالعقلانيّة والعلميّة والإتقان.

يريد الله -تعالى- لنا أن نتحلّى بها ونعمل على تحقيقها. إنّ السعي إلى الآخرة عمليّة واعية فيها الحكمة والمقصد والغاية بمنتهى الوضوح، وبدون التخطيط والتصميم والعزيمة لا يمكن أنْ ينجح الإنسان في هذا السعي؛ لأنّه سعي ليوم بعيد يأتي الإنسان في مستقبله البعيد -حسب المفهوم الدنيويّ للزمن طبعًا- وهذا يتطلّب رشدًا عقليًّا يسمح بالرهان على نتائج بعيدة المنال نسبيًّا، وإنْ كانت قطعيّة بالإيمان، ولعلّ ما في الآية اللاحقة من إشارة لطيفة إلى عنصر الإيمان يدلّ على أنّ الرهان على مستقبل الحياة في الآخرة غير ممكن بدون الإيمان وقوّته في النفس:

قال -تعالى-: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾[1]، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾[2].

إنّ دلالة الآيتين على مفهوم الشكر الإلهيّ لسعي الإنسان، وكذلك رؤية الإنسان لسعيه أو لثمار سعيه، هي دلالة هامّة فيما يخصّ مضمار النقاش في المستقبليّة القرآنيّة، وهو تأكيد إضافيّ على عقليّة الرهان على الصبر والسعي؛ لأنّ كون هذا السعي مشكورًا يعني أنّه يعطي ثماره في نهاية المطاف، ويحقّق هدفه الأسمى، ويأتي بالردود الأرقى والأفضل ممّا كان يمكن للإنسان تحقيقه في الدنيا بما لا يُقاس، وبخاصّة التشديد على أنّالذيسوف يُرى ليس الثواب على سعيه، وإنّما السعي نفسه هو الذي سوف يراه العبد الصابر والساعي، لتكون دلالة مذهلة على أنّ السعي والصبر -هنا- عمليّة في قمّة العقلانيّة والموضوعيّة، وأنّ النتيجة ملتصقة معهما، وأنّ الشكر والثواب والجنّة والرحمة والرضوان كلّها تعابير عن أنّها هي التحقّق المثالي والأخرويّ لجهود المؤمن وتجلّيات أفعاله. قال -تعالى-: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ

(1) سورة الإسراء، الآية 19.
(2) سورة النجم، الآيات 39-40.

ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴾[1].

تدعو الرؤية المستقبليّة في الآية الكريمة إلى الإعداد للمستقبل لسيناريوهات مجهولة غير محتومة أمام المؤمن، ولكنّ الله -تعالى- يدعو إلى أخذ جميع الاحتمالات الممكنة بعين الاعتبار والبناء عليها. وهذا الدالّ الخطير نفهمه من عبارة: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾. وتقييد الإعداد بكلمة ﴿مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم﴾ يدلّ على لزوم تجاوز المساعي الإعداديّة كلَّ الحدود القائمة المرئيّة والظاهرة حتى تصلَ إلى مستوى الاستطاعة والقدرة، وليس بحجم ما يراه المسلمون من تواجد مشهود لأعدائهم، وليس بقدر معرفتهم بقدراتهم وأعتدتهم ومعدّاتهم فحسب؛ كما إنّه ليس إعدادًا عسكريًّا فقط، وإنّما تحثّ الآية على إعداد القوّة بجميع مصاديقها، ولكنّ الغلبة زمن نزول الآية كانت للقوّة العسكريّة، وليس للفكر والثقافة والفنّ والقوّة الناعمة كما نسمّيها اليوم، وبخاصّة لوعلمنا الظروف الصعبة والفقر الثقافيّ والعلميّ السائد حينئذ، في حينأنّها تستوعب اليوم جميع القوّات والقدرات التي تجري فيها المعارك الطاحنة، وبخاصّة على المستوى الحضاريّ والثقافيّ قبل العسكريّ والمادّيّ؛ لأنّ العدوّ، اليوم وفي المستقبل بشكل أقوى وأكثر حسمًا، يسعى إلى احتلال الشخصيّة والفكر والعقل وتدميرها من الداخل بالوسائل الناعمة وبأدواته الخاصّة. وعليه؛ فلا شكّ في أنّ علم المستقبل يبرهن اليوم على أنّنا سنرى في الغد مشهد معركة تكون الثقافة والفنون والمفاهيم والأدب والإعلام و«الميديا» فيه أشدّ الحروب في التأريخ كلّه.

وستحصد الأمّة في المستقبل حصيلة سعيها اليوم في حسم هذا الإعداد والتهيئة والاستعداد الشامل. وهي عمليّة صعبة معقّدة لن تتسنّى لنا الحركة فيها بنجاح؛ إلا أن نهيّئ لها الأنفس والآفاق والوسائل بالمنهج

(1) سورة الأنفال، الآية 60.

العلميّ المتقن. وعلم المستقبل برؤية قرآنيّة تغلب عليها العلميّة والبعد الأنطولوجيّ هي طريقنا الحاسم لتحقيق ذلك.

وحسب هذه الفكرة المستقبليّة القرآنيّة، فإنّ ما يصوغ المستقبلَ ويُشكّل غدَ الإنسان هو السعي الذي يبذله الآن في راهنه. ذلك أنّ المستقبل في الواقع هو حصاد اليوم، والراهن هو مزرعة الغد، كما إنّ الحياة الدنيا بمنزلة مزرعة الآخرة، والأخيرة هي المستقبل الأبعد والأبقى للدنيا.

ومن هنا، فإنّ الدراسات المستقبليّة المعاصرة لا ترمي إلى التنبّؤ للمستقبل؛ وإنّما تلفت إليه بمنهج علميّ دقيق، يبتني على التفكير الراهن لترشيد العمل والفكر القائم في ضوء فهمنا له، وعلى التخطيط الشامل المرتكز على المعطيات المكتشفة فيما يتّصل به. هي عمليّة عقليّة علميّة ممنهجة تحرّر التفكير الدينيّ -بل الإنسانيّ- من أسره على يد الماضي وغرقه في الراهن، وتربطه بالمستقبل؛ لأنّ الأمور بعواقبها وخواتيمها كما يُقال. والعبرة بمآلات الأشياء والأفكار والأشخاص.

وفي ضوء هذه الحقيقة يمكن التأكيد على «أنّ الاستشراف يبنى على قيم وعلى تحديد المتغيّرات والعوامل التي كانت بمنزلة المعالم الرئيسة لكلٍّ من الماضي والحاضر، ولكنّ ذلك لا ينفي إطلاقًا ضرورة التكهّن بالمتغيّرات والعوامل غير المرئيّة، والتي قد تبرز في أيّ محطّة من محطّات الزمن القادم، لتؤثّر في مشاهد وصور المستقبل. ومن هنا، يبدو الاستشراف عبارة عن عمليّة متواصلة عبر الزمن لايقصد منها تحديد تفاصيل المستقبل والتنبّؤ به بقدر ما تهدف إلى اكتشاف البدائل المستقبليّة المختلفة وترشيد عمليّة المفاضلة بين البدائل. وبمعنى آخر فهو العلم الذي يقوم بمهمّة ووظيفة التنبيه والتحذير،والحيلولة دون وقوع المشاكل، والمخاطر التي قد تواجه المجتمع؛ وذلك على كافّة المستويات الاجتماعيّة، الاقتصاديّة، السياسيّة، الثقافيّة، التعليميّة، الصّحّيّة والهندسيّة مستقبلًا،ثمّ توفير الوسائل والقدرات التي يمكن أن تُحدثَ تغييرًا في هذه

البدائل ممّا يُؤدّي إلى ترشيد عمليّة التخطيط، ويخدم المصلحة العامّة أو الخاصّة»[1].

رابعًا: المدرسة القرآنيّة للرؤية المستقبليّة مستقلّة ذات هويّة وجوديّة توحيديّة:

تتّسم بنية الأنظمة والنظريّات الفكريّة القرآنيّة برؤى كلّيّة وجوديّة وتفاسير تأويليّة شاملة تطال الفلسفات الأساس حول الوجود والله والإنسان والتأريخ والطبيعة ومنطق العلاقات الواسعة بين جميع هذه الأطراف بمنهجيّة توحيديّة شديدة الانسجام والتواصل والتشابك.

كما إنّ النظريّة الاستشرافيّة القرآنيّة -أيضًا- ليست استثناءً في هذه الخصوصيّة المعرفيّة والوجوديّة؛ لأنّها لا تقتبس من غيرها، بل تؤسّس لحالة فرادة ونوعيّة بديعة في الفكر الاستقباليّ، حيث لا نجد وصفًا موضوعيًّا شرعيًّا في القرآن الكريم أو حكمًا تكليفيًّا عمليًّا فيه؛ إلا ويندرج ضمن تنجيز مقاصد معيّنة بتصوّر مستقبليّ، وبخاصّة لو تعمّقنا في مفاهيم مفتاحيّة رئيسة في القرآن؛ كمفهوم المعاد، القيامة، التوحيد، التفاعل بين الأعمال وجزائها، مفهوم الوعد والوعيد، البصيرة، الإنذار والتبشير، الفوز والفلاح، الجنّة والنار، الثواب والعقاب، السنن الثابتة، وما إلى ذلك من مفردات الكتاب التي لو تعمّقنا فيها لرأينا أنّها جميعًا تتفاعل مفاهيمها وتتشابك دلالاتها في النصّ القرآنيّ، وتنشأ منها مدرسة مستقبليّة مستقلّة ذات هويّة متميّزة.

وعلى سبيل المثال، يمكننا الإشارة إلى مصطلح الصبر في القرآن الكريم؛ وهو مفهوم متداخل مع جميع المنظومة المعرفيّة والعمليّة القرآنيّة والشبكات الدلاليّة القرآنيّة. وإنْ تعمّقنا في الصبر لوجدنا أنّه وإن كان

(1) مبروك، ساحلي: «مناهج وتقنيّات الدراسات المستقبليّة وتطبيقاتها في التخطيط»، مقالة مقدّمة إلى الملتقى العلميّ حول الرؤى المستقبليّة العربيّة والشراكات الدوليّة، الخرطوم، 22-1434/3/24هـ ق/ 3-2013/2/5م.

مقولةً أخلاقيّة قيميّة من جملة الفضائل النفسيّة، غير أنّه عنصر هامّ في حركة استراتيجيّة إنسانيّة إلهيّة في تحقيق المقاصد العليا برؤية مستقبليّة تَفوقُ التوجّهاتِ المستقبليّة المادّيّة.

وعليه؛ فنحن نجد أنّ الصابر حينما يستعينُ بالصّبر حسبَ التعبير القرآنيّ[1]، فهويتحرّك في العمليّة التربويّة أو الإداريّـة أو السياسيّة والاجتماعيّة في مسار زمنيّ ومكانيّ وظرفيّ واسع، كما إنّ القرار والعمل يأتيان في إطار المدى الأوسع للرؤية؛ ما يُقلّل احتمالات الإدارة المتخبّطة العمياء لمصادر الحياة ومنابع القرار. وعليه؛ فإنّ الصبر فضيلة أخلاقيّة، غير أنّه عنصر لتوسيع الرؤية من الضيّقة إلى الرحبة الواسعة، ومن الراهنيّة العاجلة التي تحكم فيها وتربكها العجلة المذمومة في أدبيّات القرآن الكريم إلى الرؤية الآجلة وتأجيل القرار، إلى رحابة الأزمنة المستقبليّة وما تحمله من التحوّلات والتطوّرات التي يساهم في بنائها الإنسان بعقله. وبذلك سنشهد ثورة في علم الإدارة ومناهج التربية وتحقيق المصالح.

هذا، وقد قرنت الآيات الأخرى حول الصبر بحتميّة النتيجة؛ وهي النصر والانتصار وتحقيق المقاصد العليا. هي حقيقة تدلّ على أنّ الله -تعالى- حينما قرن نفسه أكثر من مرّة بالصابر في تعبير ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾، أو ﴿ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ فإنّ المعيّة هذه تختزن حمولة عقليّة وموضوعيّة وعينيّة هامّة تضمن النجاح والنصر والإنجاز. فليس الصبر فعلًا مرًّا يتكبّده المؤمن في الدنيا لأجل اكتساب الثواب في الآخرة؛ وإنّما الصبر هوأساس يستعين به الإنسان في الحياة الدنيا، ويفلح به على الأعداء في النفس وفي الآفاق، ويكتسب به القدرة والمقاومة والصمود أمام عناصر الإسقاط والانهيار. وعليه؛ فهو مقولة تخطيطيّة قياديّة تربويّة دنيويّة يشهدُ الصابرون فيها نتاجَ صبرهم في الدنيا قبل الآخرة؛ سواء أشاهدوا

(1) الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (سورة البقرة، الآية 153)؛ وكذلك الآيات الأخرى الداعية إلى الصبر والمؤكدة لأهمّيّته في تحقيق النصر.

هم النتائج أم شاهدها غيرهم، ولكن لا جرم أنّ النتائج ستبرز في طبيعة الحياة البشريّة في العاجلة، وإنْ كانت البركات المترتّبة عليها في الآخرة لا تقاس بسبب أنّ النفس في العقبى تستوعب الإدراك بأعلى مرتبة ممكنة، وإلا فإنّ الخير الحاصل للفضيلة والعقل والحكمة والعبادة هونتيجة آنيّة تلازم الفعل المسبّب له.

وعليه؛ فالصبر ليس تصرّفًا سلبيًّا أو تعطيلًا للعقل والتخطيط والحكمة؛ ضعفًا في اتّخاذ القرار، وإنّما هو استراتيجيّة إدارة الزمن والرهان على منح العقل مدى جديدًا، ورؤية أوسع للحركة وصناعة القرار، وفقًا لمتغيّرات جديدة لا يمكن التفكير فيها والتأمّل بها وسطَ الضغوط النفسيّة أو العوائق الواقعيّة العاجلة. فلواستطاع الذين ارتكبوا جرائم تحت ضغط الارتباك والتوتّر والقلق والخوف واليأس والإحباط والفقر أن يمارسوا الصبر دقائق قليلة قبل إقدامهم على الجرائم؛ لشهدنا أنّ أكثر من نصف هذه الجرائم ماكانت لتحصل.

وذلك يرجع إلى أنّ الصبر يُسبّب تحرّر العقل الإنسانيّ من أسر الارتباك والهيجان النفسيّ،فيصبح العقلُ قادرًا على اتّخاذ قرارات أفضل في مناخ التروّي والهدوء، بعيدًا عن عناصر الاستفزاز والتلاطم والتوتّر. وعليه؛ فإنّ الصبر ليس مجرّدَ توصية أخلاقيّة شخصيّة تجلبُ للإنسان الأجرَ والثوابَ الأخرويّ، وإنّما هو مفتاح الصلاح في العالم، وأساسٌ من أسس الترشيد للحركة الإنسانيّة في الدنيا، والسرّ الأساس في ذلك يرجع إلى الشحنة الاستشرافيّة التي تختزنها قيمة الصبر وفضيلة الصبر.

ليس الصبر في أدبيّات القرآن الكريم ليس تجميدًا للقرار؛ وإنّما هو اتّخاذٌ لقرار التأجيل والرضى بالأقدار السُننيّة الإلهيّة العليا بتوافر فرص في قادم الزمن تنطوي على إمكانيّات التعقّل والتفكير والتخطيط أزيد من فرص الراهن. هي عمليّة إيجابيّة شجاعة وليست تراجعًا أوضعفًا أوخنوعًا أمام الضغوط.

ومن أهمّ خصائص المدرسة القرآنيّة ما يأتي:

1-العلاقة الشبكيّة التضامنيّة بين الأزمنة الثلاثة: الماضي، والراهن، والمستقبل في صناعة التوجّه المستقبليّ؛ أي إنّ الرؤية العميقة المتجذّرة في التأريخ، والالتفات إلى التراكمات التجربيّة التأريخيّة هي من أصول تحقيق الأفق الاستشرافيّ القرآنيّ؛ لأنّ المستقبل المبنيّ على عمًى في النظر إلى الوراء لن يكون دقيقًا وقابلًا للبناء والتبنّي، وثمّة آيات قرآنيّة كثيرة جدًّا تربط الماضي بالمستقبل وتصف المستقبل بسلبيّة في ضوء فقدان العبرة والتوجّه إلى تجارب الماضي. ولعلّ القصص القرآنيّة تحكي سيرورة السنن الكونيّة في التأريخ؛ منعًا لتكرار التراجيديا في الراهن والمستقبل.

2-إنّ للمستقبليّة القرآنيّة طابعًا علميًّا منطقيًّا حتميًّا لو أدركناه وطبّقنا القواعد القرآنيّة في اكتشاف المستقبل والاستشراف له ولأحداثه؛ لأنّه منطقيّة علميّة محكمة تسود حركة الزمن والتأريخ والمجتمع، وهي متوافرة في المدرسة الاستشرافيّة القرآنيّة، وبالاعتماد عليها يستطيع الإنسان أن يتوقّع نتائج حتميّة في سياق تاريخيّ مستقبليّ حتميّ، ولكنْ بشكل مشروط، حيث ترتبط خيوط المستقبل بخيوط الواقع والماضي وحركة العقل الإنسانيّ فيهما. ومن الخصائص الهامّة لهذه المدرسة القرآنيّة: القيمة المعرفيّة للمستقبليّات القرآنيّة في ضوء السببيّة الحاسمة والعلّيّة المنطقيّة الدقيقة السائدة على ظواهر الوجود، فما وقع في الماضي سيقع في المستقبل -أيضًا- شريطة أنْ نقرأ الأحداث بهذا المنطق العلميّ التوقّعيّ والتنبّئيّ.

3-إنّ الاستشراف القرآنيّ هو صفة المعارف الإلهيّة في جميع فروعها، حيث تتفاعل الروح الاستشرافيّة مع الفقه والكلام والأخلاق، كما إنّها جميعًا تتعامل فيما بينها لتحقيق التوجّه الاستشرافيّ. هذا، ولاتحاك العلوم الدينيّة والإنسانيّة في القرآن الكريم برؤية الماضي أو الراهن

أو المستقبل فقط؛ وإنّما تختزن جميع المعارف؛ بل إنّ السبب الرئيس لجميعها هو تنبّؤ الإنسان بما سيحصل له فيما لوتصرّف في أيّ من أطر المعتقد والأخلاق والقيم والفقه والفعل المباشر التكليفيّ في سياق متّصل بين جميع هذه الحقول، والقدرة على التخمين والتوقّع العلميّ على مستوى الفرد والمجتمع، وفي جميع المناحي الثقافيّة والنفسيّة والحضاريّة.

4-الاستشرافيّة القرآنيّة منوطة مرتهنة بتوافر منهجيّة معرفيّة تتّسم بالخصائص العلميّة والمعرفيّة القرآنيّة والمنطق التعامليّ التشابكيّ بين جميع الحقول بمعزل عن الاتّجاه التخصّصي للعلوم والمعارف؛ لأنّ التخصّصيّة الراهنة في جميع المستويات هي من عوائق التحقّق الاستشرافيّ وتوقّع استحقاقات المستقبل. والقرآن الكريم يبني عمارة موحّدة كاملة ذات سمات أنطولوجيّة توحيديّة معرفيّة يتمكّن العقل من خلالها من أنْ يبلغ أعماق الأحداث؛ حدسًا للماضي واستشرافًا للمستقبل.

خاتمة:

إنّ من الظلم بحقّ المسلمين وبحقّ القرآن الكريم أن يُسقِطوا على كتاب الله النظريّاتِ العلميّة والفلسفيّة العلمانيّة أو الحداثيّة المادّيّة في موضوع المستقبليّات وعلم الاستشراف ومدارسها، ممّا أنتجه العقلُ البشريّ المحدود في ناسوت المادّة والمحروم من الرؤية الملكوتيّة الأنطولوجيّة الشاملة، بمنهجيّة المقارنة والمقاربة، دون النظر العميق والالتفات المنهجيّ إلى كنوز القرآن في فلسفات المستقبليّة والاستشراف، متجاهلين مستصغرين فكرة الرؤية المَعَاديّة الغائيّة العاقبيّة المنتشرة في جميع الآيات والسور القرآنيّة.

ويبقى أن نشير إلى مجموعة من العناوين المتعلّقة بالموضوع

المبحوث، وهي بحاجة إلى مزيد بحث، على أمل تناولها في مقالات لاحقة، ومن أبرز هذه العناوين الآتي:

1-الاستكشافيّة المعرفيّة والمعياريّة القيميّة في المنهجيّة المستقبليّة القرآنيّة

2-معرفة المستقبل أوصناعة المستقبل.

3-تفاعل المستقبل والراهن والماضي في صناعة المصير.

4-سيكولوجيّة الرؤية المستقبليّة القرآنيّة.

5-غياب الرؤية المستقبليّة في مناهج التفسير.

6-المنهجيّة المستقبليّة في التفسير القرآنيّ.

7-إعـادة التشكّل في الفقه المستقبليّ في ضوء المنطق الاستشرافيّ القرآنيّ.

8-التحدّي والاستجابة والرؤية المستقبليّة القرآنيّة.